
عصير
الكتب
fb.com/groups/Book.juice


الهجين



الكتـــــاب: الهجــــين
المـــؤلــــف: محمد محمود سليمان
تـدقيـق لغـوي: إسراء الغمري
تنسيــق داخلي: سمر محمد
رقـــم الإيـــداع: 2017 / 2326
978-977-6541-28-3 :I.S.B.N

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: أحمد حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الهجـــــين

رواية

محمد محمود سليمان



إلى

J. K. Rowling

و

حسن الجندي

"المزج بين الحقيقة والخيال.. تلك هي الرواية حقًا !"

تشوهن زياو

ناقد أدبي صيني

الجزء الأول

حكايا متقاطعة


عصير
الكتب

طريقٌ ذو اتجاهٍ واحد

تتحرك حافلة الرحلات الضخمة، على الطريق المزدوج - بلا فاصل - الرابط بين العاصمة وإحدى المدن الساحلية السياحية، بتؤدةٍ نوعًا ما؛ وذلك لظلمة الطريق المُضاء باللون الباهت للقمر، والمصباح الضعيف للعربة.

يغط معظم ركابها في سباتٍ عميق، حيث تعالت العديد من الأصوات، والتي تخرج من أفواهٍ مفتوحةٍ خلال النوم، موحية لمن بقى مستيقظًا منهم بالفكرة الجارفة للنعاس.

أما سائقها الذي لم يسلم هو أيضًا من إغفاءات بسيطة لمدة ثانية أو ثانيتين، سُرعان ما تنتهي باصطدام ذقنه بصدره، ينظر بمللٍ إلى مساره الذي لا يبدو أن له نهاية، ولكن سرعان ما لفت نظره شيءٌ غريب لم يعتد وجوده - في مثل هذا المكان - على الطريق الذي يحفظه عن ظهر قلب!

(ما هذا؟).. غمغم السائقُ في ترقبٍ وهو ينظر للأضواء الحمراء التي تقطع طريقه على بعد غير قليل منه.

قللَّ سرعته للوقوف قبل الأضواء، ليُفاجأ بعددٍ من الملثمين يقطعون الطريق حاملين أسلحة نارية، ملوحين بها في تهديد.

كاد يزيد من سرعته فجأةً ويدهسهم، وبالأخص أن عددهم لا يتجاوز العشرة بأي حالٍ من الأحوال، ولكن شيئًا في أعينهم الظاهرة فقط من وجوههم أوقفه. شيءٌ أخافه !

فُتح باب العربة ليدلف أحدهم، طويل القامة، أسمر البشرة، ملثم لا يظهر إلا بياض عينيه المختلط بصُفرة دليلًا على أصله الزنجي، يحملُ رشاشًا آليًا معلقًا على كتفهِ بإهمال.. تتجه فوهته للأرض دلالة على عدم الإيذاء غير المبرر تجاههم.

كان ينظر بالترتيب لوجوههم، متخطيًا المقعد تلو الآخر، بدون أن ينطق بكلمة مما زاد من تخوفهم، ولكن اتضح أنه يبحث عن شخص أو شيء محدد؛ فإن لزموا الصمت سلموا.

وصل إلى المقعد الرابع في الترتيب خلف السائق، حيث ينظر إليه الجالس الأول برعبٍ شديد قد يصل به إلى فقدانه الوعي؛ تدل عليه قطراتُ عرقه التي تنزف بغزارةٍ فوق جبهته، وحيث ينام الآخر

الجالس بجانب النافذة في سلامٍ لدرجة أنه لم ينتبه كباقي الركاب للتوقف المفاجئ الغامض هذا.

في بُطءٍ يُخرج الأسمر مسدسًا ضخمًا من جرابه، ويمده في حذرٍ حتى يُلصقه بصدغِ النائم الذي يفتح عينيهِ في هدوءٍ ثم يبتسمُ أيضًا في هدوءٍ مستفز..

- مرحبًا يا هذا!

قال موجهًا كلامه إلى الأسمر..

- حمدًا لله أنك ملثم حتى لا يداهمني وجهك البشع

أضاف متهكمًا وهو ينظر إليه بتحدٍ.

لم يبدُ أن الأسمر تأثر بذلك الكلام الموجه إليه. ضغط بمسدسه بقوة أكبر على صدغ النائم - الذي استيقظ لتوه - موجهًا له الكلام بصوت أجش:

- إذا أتيت بأي حركةٍ مفاجئة فسيكون دم أولئك الحثالة هو الثمن، فلتمد ذراعيك إلى أقصى امتدادٍ أمامك، ولتتحرك ببطءٍ مساوٍ لاستفزازك هذا.

ينفذ كلامه بمنتهى الهدوء، على الرغم من البسمة المستهترة

المرتسمة على شفتيه بعفوية.

(كنت متأكدًا أنك لن تقاوم، ما زلت مهتمًا بدمائهم كديدنك)، ينظر إليه الأسمر بتحدٍ: **(أترى؟ لا أحد يهتم لك، سآخذك من وسطهم دون أي اعتراض، يخافون من مسدس وبضع رجال، وهم أكثر وأقوى)**، يضيف الأسمر.

تتسع ابتسامة النائم - الذي استيقظ لتوه ويمد ذراعيه أمامه الآن - ويقول: **(هم أكثر وأقوى!! هل تتكلم جديًا؟)**، مقربًا حاجبيه في علامة تفكير.

يرد الأسمر سريعًا وهو يزيح اللثام عن وجهه: **(كنت أحاول أن أثبت لك فقط، أنك مهما حاولت لن تغير شيئًا من المحتوم، جبنهم وضمان سلامة القطيع هو ما سيجعلنا نسود في النهاية، هذا ما أفعله، وإلا فإنك تعرف جيدًا أنه بالإمكان أن نأخذك بأكبر قدر من الضوضاء، والخسائر)**، يضم أسنانه وهو يقول آخر جملته في مقت.

تعود ابتسامته الهادئة إلى شفتيه قبل أن ينظر بصورة ودية إلى الأسمر قائلًا: **(أنت تعرف يا ابن شمه....)**، يسكت قاطعًا جملته فجأة، قبل أن يضيف: **(ليكن، أنت تعرف يا صديقي أن الأمر**

دائمًا يبدأ بفردٍ واحد، واحد فقط يقف ليقول "لا"، ثم ينهمر مطر الرفض متتابعًا، حتى يكون كالسيل الذي لا يمكن إيقافه).

يتمهل ملتقطًا أنفاسه، ثم يُشيح بوجهه بعيدًا عن الأسمر مكملًا: (**قد تكون "لا" تغير مجرى الحياة كما قالها ملكك، وقد تكون "لا" بلا فائدة تذكر مثلما لو قالها أحد ركاب هذه العربة**)، يمط شفتيه في ازدراء ثم يختم جملته: (**المهم أن نقولها ونحن مؤمنون بها، مهما حدث من جرائها بعد ذلك، أن نقولها في لحظة اختيارٍ حر، قلما تُتاح لنا**).

(**نعم وقد تكون "لا" تقتل صاحبها مثلما فعلت لاؤك**)، يضيفُ الأسمر في تشفٍ كاشفًا لأول مرةٍ عن ضحكةٍ خبيثة تُظهر أسنانًا في نفس لون بياض عينه.

تعود الابتسامة المتهكمة لشفتيه: (**يبدو أنها لم تفعل بعد، فأنت ما زلت تكلمني ها هنا**).

(**لا تتعجل**)، يزمجر الأسمر، (**هو يريدك أولًا وبعدها سيتركك لي لا محالة**).

(**لا أنا متعجل، هيا حتى لا نعطل الحافلة**)، ينظر له شذرًا ثم ينزل مسرعًا مواجهًا باقي الملثمين.

تشع عين قائدهم بالفرح ثم يوجه كلامه إلى المختطَف: **(أهلا بك، لقد أتعبتنا يا ابن لاقيس)** ليقيدوا رسغيه خلف ظهره في سرعة، وسرعان ما يختفون من الطريق وكأنهم أشباح، تاركين أفواه ركاب الحافلة مفتوحة أكثر مما كانت وهم نائمون.

■■■

بردٌ يسري في الأوصال

يخلع نظارته ببطءٍ واضعًا إياها على "الكومود" المجاور لسريره، يستلقي ببطء أكبر على ظهره ناظرًا بحِيرة للسقف أعلاه، تتهدل خصيلات شعره الناعمة والطويلة بجانبه، في مثل لون الحليب دلالة على كِبر سنه.

أصبح يُحس بالبرد أسرع من ذي قبل، يشد الملاءة الثقيلة عليه أكثر متمتمًا لنفسه: **(كبرت يا ابن حافظ، كبرت ودنت نهايتك، ولا تعرف ماذا تفعل فيما تملك !!)**

ساهمًا كحالته مؤخرًا، يغمضُ عينيه ويتمتم حزينًا: **(ماذا ستفعل يا هالك، فيما لا تكسره المهالك)**

ينتفض جسده مرةً أخرى، ويتسرب إليه الخوف الذي عرفه مرارًا، ماذا سيحدث لما يملك إذا مات ولم يبُح بالسر لأحد؟

تُشوش ذهنه ذكرى بعيدة عن ابنٍ تركه ولا يدري عنه شيئًا، وعن نسل انقطع ولا يعرف كيف يكمله، وعن عهد قُطع ولا يستطيع الفكاك منه، وعن حربٍ تدق طبولها بعنف؛ لا يسمعها ولكن يحس بضرباتها تنفض قلبه يومًا بعد يوم.

أحسَّ بالبرد يزداد بداخلهِ على الرغم من إحكامه الغطاء.

يدعوالله أن يعينه، يُصلي قلبه بداخله صلاةً صامتة تقترب من حد البكاء دمًا.

يحاول أن يُطمئن نفسه بلا جدوى، ثم أخيرًا يقتنص النوم عقله فيذهب في غياباته.

■■■

حماية مزدوجة

تمشي عائدةً ليلًا إلى بيتها، كعادتها منذ زمن، لا تخاف الظلام ولا الوحدة، هكذا عودها فقد الأب والأم بالتتابع، تعرج على طريق مظلمةٍ ضيقةٍ مختصِرةً المسافة الباقية.

وفي جزءٍ محددٍ منها - وكما تعودت - يظهر الكلبان الأسودان ليمشيا بجانبها كحرسِ شرف، يظهران من العدم أو يُخيل لها هذا.

كانا من ضمن ما ألفته في حياتها فلم تعد تعبأ بهما، بل إنها أحيانًا تستأنس مشيتهما البطيئة وتحفزهما الواضح وتشممهما الهواء حولهما.

وفي جزءٍ مُحددٍ آخر يختفيان بعد أن يجنحا بعيدًا عنها، ساعتها تكون وصلت إلى بيتها أوكادت.

(**هل لا زالت ملائكة الحماية المزدوجة تحرسك؟**)، تضحك صديقتها وشريكة سكنها وهي تلقي السؤال.

(نعم، والأمر أصبح مسليًا أكثر من كونهِ مدعاةً للتعجب)، ترد على صديقتها في ابتسام.

بعد وفاة والدتها لم يبق لها في هذا العالم غير هذه الصديقة شريكة السكن، نعم لا يزال لديها جد لأبيها ولكنها لا تعرفه، سمعت أمها فقط تدعوه بالمجنون الرافض لنسل البنات اللاتي لا يصلحن لحفظ العهد أو لحمل الأمانة، لا تعرف أي عهدٍ أو أي أمانةٍ يقصد، ولم تُقابله شخصيًا قط أو حتى تذكر ذلك منذ وعيها الأول بالحياة.

انفصل أبواها بعد ولادتها بفترة قصيرة، ولم ترَ والدها منذ ذلك الحين إلا مراتٍ لا تتعدى أصابع اليدين، قيل أن لها أخًا ولكنها لم تره بتاتًا، عرفت من أمها أنها في خطر - لا تدري كنهه - لمجرد أنها ابنة لهذا الرجل الذي لا تعرفه، ورغم هذا لم تذكره أمها بسوءٍ أبدًا!، بل على العكس؛ كانت دائمًا تذكره بكل خير معددةً صفات تكاد تكون أسطورية تليق أكثر ببطل من أبطال السيَر وليس معاصرًا تركهما وحيدتين تتلاطمهما أمواج المعيشة.

الجد هو الذي نال دائمًا لعنات الأم، لم يسلم أبدًا، وبكل مرة ذكرت فيها الأم صفات الأب الأسطورية، لعنت فيها تقاعُس الجد؛ الوحيد الذي كان يستطيعُ أن يحميهما من الخطر المحدق بهما حسب رأيها.

كان من الممكن أن يقيهما في كنفه من غدرات الحياة المتتابعة، ولكن جُنَّ جنونه بعد موت أبيها - هكذا تحكي أمها - وأخذ ينعي النسل المقطوع والعهد المفعول وطبول الحرب التي يشعر بدقاتها على نياط قلبه.

لم تهتم بكل هذا الهرج، اتقنت دراساتها وعملها، وحققت تفوقًا يحسدها عليه القريب قبل البعيد، أقسمت لنفسها يومًا أن تعوض والدتها عن كل ما مرت به قبلًا، وقد وفت قسمها -أو هكذا تظن- ولم تعبأ أبدًا بماضيها ولا سعت لمقابلة أخ أو جد لا تعرف عنهما إلا خيالات جُسدت في عقلها من كلام أمها.

سارت حياتها دائمًا بوتيرة مملة، ولم تعرف أبدًا الخطر الذي قد يهددها في مثل هذه الحياة. حتى أنها نسيت أوكادت.

نسيت جدها حتى رأت هذا الشيخ الأشيب في منامها.

ونسيت أخاها حتى قابلت ذلك الشاب الذي يشبهها كثيرًا، والذي تكاد تقسم أنه لم يرفع عينه من عليها طوال رحلة مترو الأنفاق حيث كان يجلس قبالتها، ولكنها كل مرة تفاجئه بنظرتها تراه لا يركز عليها البتة.

ونسيت الخطر المحدق بها، حتى أحست بحماية الكلبين الأسودين المزدوجة.

كان من الممكن ألا تلاحظ كل هذا، ولكن تتابع الأحداث في فترة قصيرة نبه عقلها أن هناك شيئا غير مفهوم يجري..

وكأنها ذاهبةٌ مرغمة إلى قدرها الذي حاولت دائمًا أن تهرب منه.

■■■

رؤية ثاقبة

يفتح شباك غرفته ليواجه ضوء الصباح، غرفته التي لا يغادرها إلا في أضيق الحدود، وشباكها الذي يطل على حارة ضيقة تُفضي إلى شارع صغير في حي عتيق من أحياء العاصمة الأثرية.

يستنشق الهواء في نهم، تزداد لدينا دائمًا لذة الشيء إذا حُرمنا منه، وهو يخاف من المغادرة، حياته مهددة، والأكثر نكاية هو أنه لا يعرف كيفية الفكاك بالضبط.

شاب قروي رحل إلى العاصمة للالتحاق بالجامعة، وحيدًا بعيدًا عن أهله، شرهٌ للقراءة والمُطالعة، صَموت وغير منفتح على الآخرين، لم تبهرهُ أضواء المدينةِ الزائفة، ولم يستطع أحدٌ اقتحام أسوار عزلته.

الشيءُ الوحيد الذي أتيح له هو الوفرة؛ وفرة الكتب والمواد،

وفرة الحرية الممنوحة ووفرة الذوبان وسط جموع البشر العارمة التي تخنق العاصمة.

هو الذي تربى في القرية على الخوف من العوالم الموازية التي يسكنها المسوخ الذين لا همَّ لهم غير إخافة الأطفال الصغار أو خطف الشباب الكبار أو قتل الشيوخ الهرمين، والذين لم يرهم لحسن حظه هناك أبدًا، جاء هُنا ليعرفهم عن قرب!.

استمر في تجاربه زمنًا، عرف أشخاصًا مثله لهم نفس ولعه الغريب، وخاض أكثر التجارب تطرفًا.

كل ما قرأه في الكتب أو ما جُمع فيها لم يبلغ معشار ما يحتويه عقله من معلومات، لقد عرف أشياءً شيبت شعره فعليًا، وجعلت تجاعيد وجهه تنطلي بداخله على قلبه! أشياءٌ لم يحسب في يوم أو يتخيل أن تكون موجودة، أشياءٌ تُهدد عالمه الهش المعروف؛ تدمره بشكل نهائي.

حاول جاهدًا أن يقاومها ولكن فعلًا لم تكن لديه المقدرة أو الطاقة على مجابهتها.

وعندما اكتشف أمره، هرب!!

كانت فكرة مجنونة هي الأخرى، كيف يهرب من شيء لا يستطيع أن يراه، وكل تلك الأشياء تتابعه من حيث لا يدري.

أخذ يبحث في الكتب كثيرًا، وتواصل مع تلك الأشياء، أو مع بعضها الطيب حتى يدلوه على الطريق، كان يعرف جيدًا أن هناك طريقًا واحدًا يسلكه لكي ينجو، ودله أحد هذهِ الأشياء أن ما يبحث عنه موجود في العاصمة التي يسكنها، فليبحث عن علاماته وسيجدها، وليلازم مكانه بل ولينضوِ تحت لوائه متى يحين الموعد.

العوالم الموازية.

النور والنار.

الصراع الأزلي الذي لم ينتهِ قط.

استخدم كل ما يملك من علم وخبرة واستطاع تأمين هروبه واختبائه، ثم طور "أكسيرًا" يمكنّه من رؤية ثاقبة؛ رؤية خارج حدود ما يراه البشر. وهالهُ فعلًا ما رأى.

كل ما اختبره سابقًا كان شيئًا ورؤية ما كان يتخيله شيءٌ آخر فعلًا!!

لولا رباطة جأشه وبروده الذي أنقذه مرارًا من قبل لذهب عقله منذ ذلك الحين.

لم يكن يعرف كيف يبدأ البحث وإلامَ سيقوده بحثه؟! ولكنه تمسك بآخر أمل ظهر له، يمشي في الشوارع المكتظة شاربًا أكسيره، مشاهدًا لما لا يراه غيره، تعود ألا يخاف، ألا يحاول أن يتحاشاهم، ألا يلفت نظرهم بأنه يراهم، كم من مرة اخترقه أحدهم وأحس برجفة برودة تسري بداخله ولكنه أمسك نفسه عن التعبير في ثباتٍ يُحسد عليه.

أعجبته التجربة الجديدة، لولا هروبهُ من القتل لفعل الأعاجيب بها، بدأ يراقب تصرفات الأشياء بالخارج، ثم استطاع أن يطور أكسيرًا آخر يخفيه عنهم، ولقد كان هذا هو نصره الأكبر.

ساعتها توقف ليفكر، هل يكمل بحثه أم يكتفي بما وصل إليه، وإلى متى سيحميه أكسيره هذا الذي يحتاجه بانتظام؟!

لم يأخذ منه التفكير كثيرًا، إنه في الأصل لم يكن يبحث عن نجاته، بل سعى جاهدًا لحماية عالمه مع معرفته بضآلة قوته، والآن عندما عرف أن ما يرجح كفة بني جنسه موجود بل وفي مدينته يجزع ويقف !! ليس هو من يفعل ذلك

أحد الملاحظات الكثيرة التي استقاها من تجربته الجديدة، أن تلك الأشياء تمتنع عن مناطق بعينها، هالة تحيط بها تمنعهم من

ولوجها، كان يتسلق البناءات الشامخة وينظر إلى مدينته ليشاهدها من منظور أوسع.

ثم اكتشف جزءًا من مدينته لا تحيطه هالة وأيضًا لا تدخله الأشياء، لا يعرف لماذا، خمن أن الهالة تصنع بفعل أحد بني جنسه للحماية، إذن لماذا لا تحيط الهالة بذلك الحي، هل لأن ما يبحث عنه يوجد هناك؟ هذا هو الاحتمال الأكبر.

استطاع أن يستأجرغرفة حقيرة داخل الحي المختار، على الأقل ستزيح عنه عبء الأكسير مؤقتًا، وأخذ يراقب الحي بدقة، تردد على مسجده مرارًا ليراقب رواده، تنقل بين محلاته ودكاكينه ليختبرهم عن قرب، لم يلفت نظره أحد إلا هو.. ذلك الشيخ المسن صاحب محل العطارة، روائح البخور والعطور والبهارات المختلطة تعطي عبقا له أبعاد أخرى.

يجلس خلف مكتبه في آخر الدكان ناظرًا للوجوه الداخلة وكأنه في انتظار أحدهم.

لم يتكلم معه كثيرًا، ومع ذلك رسخ في قلبه أنه هو.

إذن فلينتظر، هو في أمان.. وفي انتظار الحرب.

■■■

نبوءة قديمة

(ذلك الغبي الذي ظن أنه يستطيع محاربة بعلزبول)، متمتمًا لنفسه وهو يضيف مقدارًا آخر من مادة نادرة إلى الخليط السائل في القدر النحاسي.

هو ساحر قدير. يشهد له القريب قبل البعيد.

وفي قرارة نفسه يعتقد بتفرده، لو كان السحر هو فن العقاقير والتركيبات المختلطة؛ فهو أستاذها، ولو كان السحر هو الارتباط بالجان والشياطين، فهو السيد في هذا المجال.

كيف بدأ؟ لا يتذكر جيدًا، كتاب قديم وجده في مكتبة أبيه فتح عينيه على عالم لم يكن يعرفه قبلًا.

أخذ يُطالع ويتتبع المعلومات أينما كانت، ترك منزل أبويه وهو لم يزل شابًا يافعًا، وتنقل من مكان إلى آخر متتبعا أساتذة السحر الحقيقين.

تتلمذ على يد أكثرهم، ثم أخيرًا استقر مع أحدهم ظنًا منه أنه أفضلهم، عامله كوالد له وبالفعل رد له المعاملة بالمثل وعلمه كل ما يعرف.

كان مأخذه الوحيد على أستاذه أنه يعامل الجن كالأسياد وهوعبد لهم.

وقد أخذ وعدًا على نفسه أن يكون ندًا لهم، وقد كان !

مطالعته المستمرة وذكاؤه الشديد مكناه من تطوير أسلوبه ليتفوق على أستاذه، واستطاع بالعلوم القديمة التي أتقنها أن يطوع سادات الجن، حتى وصلت علاقته بهم لأكبر رؤسائهم.

كان يخافهم فعلًا، ولكن مثل هذه العلاقات فتحت له المجال الذي حلم به دومًا، أصبح أقدر من ذي قبل، ولكن..

كانت الطامة الكبرى حينما عرف أن هناك الكثير مما يحاك في الظلام، كان يسمع من أصدقائه الجان عن معركة قادمة، كل قوى الشر بالنسبة لبني جنسه تتجمع من جديد، كلام متفرق عن جيش أسود، وسيف خارق، وحماية غير قابلة للاختراق، و، و، ونبوءة قديمة.

نبوءة تتحدث عن نسل منقطع لحفظة العهد، بحث جيدًا عن

ماهيتهم دون جدوى، حاول السؤال ولم يجبه أحد، بعد انقطاع النسل يؤول الشأن لأبناء سوميا، يحكمون الأرض كما الأيام الخوالي ليعيدوا ملكًا قد بلى، ويُكسر النصل الذي لا يقصم بيد ابن عزازيل، ليموت كل أمل في نفوس الفانين، وتشرق شمس الظلام السوداء.

حتى جاءت لحظة الاختيار.

خيره أحد الرؤساء بين أن ينضم إليهم أويُلعن مع بني جنسه، طغت عليه مصالحه الشخصية، مكانته التي وصل إليها، وأرباحه المنهمرة كالسيل.

كل هذا وضع على عينيه غشاوة، هوالذي لطالما عاملهم كالند، عرف أنهم تركوه يحيا ليصل لهذه النقطة، معهم أم ضدهم؟

تركه "زلنبور" ليأخذ قراره بعد تفكير، لم يكن يتوقع هذا، كان شيطان الجن أعلم بطبيعته البشرية الضعيفة من نفسه، وهو معروف لم يدري كيف يشكره عليه.

مجرد التفكير في الاختيار قض مضجعه، وأفسد عليه حياته.

الأصعب أن أصدقاءه من العوالم الأخرى لم يعطوه جوابًا شافيًا تهرب معظمهم، ولم يدر الآخرون غير الموافقة جوابًا.

لم يكن لديه إنسي ليستشيره غيره؛ ذلك القروي الصموت الذي تكلم سابقًا - في المرات القليلة التي سمع صوته فيها - عن معركة تهدد عالمهم، عن مواجهة نهائية لتحديد من يسود الأرض، عن رمز سيجتمع بنو آدم تحت رايته.

وذهب إليه.

لم تضف إليه المقابلة جديدًا، إلا أن هذا القروي الساذج عرض عليه الانضمام إليه لقتال الجيش الأسود، (**هذا الغبي لا يعرف حقًا ما يواجهه**)، كان هذا دائمًا ما يتكرر في رأسه عندما يفكر في المقابلة.

وفي النهاية حسم أمره.

هو يؤمن بالإله، هو يحب الحياة، هو لا يرى تعارض أن يحكم الأرض آدم أم إبليس؛ طالما أمن جانب من يحكم !

سيكون رئيس بني آدم في جيش عدو آدم الأول !!

وثمن رئاسته هو رأس ذلك الغبي !!

■■■

معركة فاصلة

يقف أعلى السور مراقبًا الطريق المُفضي إلى أبراج القلعة، حيث يحتمي البشر بداخلها ترقبًا للهجوم المنتظر.

نوبة حراسته بدأت منذ ساعات، والجيش على أهبة الاستعداد خلف الأسوار، معركة فاصلة ستحدد بقاء الجنس البشري من عدمه !.

ولد قبل مئتي عام من هذه اللحظة، حيث كانت أعمار البشر في عصره تبلغ التسعمائة عام؛ فمن الممكن اعتباره في عنفوان شبابه، مزارعٌ هو، والآن جندي المراقبة في جيش البشر الأوحد تحت قيادة "مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر"!

حضر آخر سنوات جده آدم وعاصر لفترة "شيث"، هو من النسل الملعون؛ نسل قابيل بن آدم، قاتل نصف البشرية والذي يتحمل وزر القتل في جنس البشر كلهم وحده.

نسل شيث اختص بالنبوة والقيادة، واختص نسلهم الملعون بالأعمال الدنيوية.

بعد موت النبي شيث حدث التمرد؛ في البداية تمرد العُمَّار، صغار الجن الذين كانوا يقومون بخدمة البشر في المنازل، وأعقبهم النسل الملعون، حاول أبناء قابيل أن يقودوا البشر، وتلاهم هجوم الغيلان والمردة على التجمعات البشرية، أصبحت وتيرة الأحداث تدور بسرعة أكبر مما كانت قبلًا. كان البشر على وشك الفناء، صراع داخلي بين نسليّ شيث وقابيل، وتهديد خارجيّ من الجن وأشياعهم أصحاب الأرض السابقين.

ثم ظهر "بعلزبول"!! تمثل لهم إبليس في أبهته، ظن أن الرب نسيهم والوحي انقطع عنهم، تجسد ليسترد ملكًا مفقودًا.

فأفاق بنو آدم، علموا أن تفرقهم أضعف شوكتهم، وأن الجن إذا حكموا صار البشر عبيدا وانقلبت الآية، لم يعرفوا ماذا يفعلون، ولم يجدوا سبيلًا إلا التضرع إلى الله لينقذهم.

وظهر "مهلاييل"، نسل شيث، أول من قطع الأشجار وبنى الجسور ومهد الطرق والمدن، حاكم الأقاليم السبعة، وأول ملوك الأرض.

ظهر ليتجمع حوله الناس، وينبذوا الفرقة، وعلى الرغم من وجود أبيه وجده على قيد الحياة إلا أنه أخذ بزمام الأمور.

فبدأ بأصلًاح الشأن الداخلي، هدأ وتيرة انفعال أبناء قابيل؛ وعين "لامك" من نسل "أخنوخ" بن قابيل وزيرا له.

ثم بعث لبني البشر كي يتجمعوا في المكان الذي سيعرف بعد ذلك ببابل، وعندما بايعوه للملك شرع في بناء القلعة، وأمر القوم بحصر أسلحتهم، جمعوا عظام الحيوانات النافقة وهيئوها، تدربوا على رمي الحجارة، وتناجوا على النار مساءً، وتعبدوا لله ليلًا.

أكمل مهلاييل مسيرته فبعث للمردة والغيلان يطالبهم بالحياد، وبدا أن إبليس قد أغواهم بقرابته لهم.

فخاطب العمَّار بالرجوع، فأبوا.

ثم بعث لبعلزبول يخبره بأن الله أورثهم الأرض وأنهم -بنو البشر- هم خلفاؤه فيها، فإن شاء فسيتركون له الأماكن المقفرة التي لا يعيشون فيها، في هدنة لا يعلم أحد مداها إلا الله، وإن رفض فلا بُدَّ من الحرب.

يقالُ أن عزازيل وأتباعه ضحكوا حتى احترقت الأرض حولهم، يقالُ أنهم قتلوا رسول مهلاييل بعد أن عذبوه، لا أحد يعلم حقيقة

ما جرى فعلًا، ولكن ما يعلمه الجميع أن الحرب بدأت ولن يستطيع أن يوقفها أحد.

مع آخر شعاع لضوء النهار، ظهرت الجحافل ...

في المقدمة جاءت الكلاب؛ كلاب سوداء ضخمة، يبلغ ارتفاع الواحد منهم ما يربو على العشرين مترًا!! نعم عشرون مترًا، فمتوسط أطوال بني آدم وقتها كانت تقتربُ من الثلاثين مترًا. ظهرت بعدها الحيوانات المفترسة، وعندما وقفت في صفوف، عرف ما سيحدث.

رجعت أشكال الكلاب والحيوانات إلى أصلها، غيلان ضخمة ذات جلد بلون رمادي باهت، أعينٌ صفراء ضخمة بارزة ومشقوقة طوليًا بلا رموش، وفتحتا منخارٍ مفلطحتان، وملامح وجه تشي بالبشاعة. وقفوا كموجة أولى من الجيش ثم تبعهم المردة !

المردة هم الأضخم، ذوو جلود حمراء نارية، قرنان حادان، ووجه أسود كثيف الشعر. يبلغ طول أحدهم ثلاثة أضعاف طول أحد أبناء آدم في ذلك الوقت.

وظهرت من العدم العفاريت!، باستطاعتهم الانتقال في الأبعاد المختلفة متخطين عوائق الزمان والمكان، سريعوا الحركة، هم إلى

حجم الغيلان ونسل آدم أقرب، لونهم بين الرمادي والأبيض، وتنعقص شعورهم فوق رؤوسهم، ملامح وجههم مظللة لا تكاد تظهر.

هنا صرخ، يبدوأن ظهور العفاريت من العدم هوالذي نبهه من غفلته، صحا الجيش تحته في ارتباك، في كلمات موجزة نقل إليهم أن الهجوم بدأ.

وقف الجند في نظام، ترأسهم مهلاييل بقامته الفارعة، والشيب الذي خط فوديه، يرتدي جمجمة أسد ليحمي رأسه، ويحمل عظمة فخذ حيوانٍ ضخم مدببة تقترب من نصف طوله.

انقسمت مشاوراتهم بين الخروج أو الاحتماء بالقلعة، غلب عليهم الخروج، ليس لشجاعة منهم فقط، بل أيضًا لمعرفتهم أن أسوار القلعة لن تحميهم بتاتًا، فغير العفاريت التي تستطيع الانتقال خلف الأسوار، هناك المردة الذين تبلغ أطوالهم طول السور تقريبًا، والجن الهوائي الطيَّار، والجن الترابي الذي يستطيع أن يعبر من خلال حجارة الأسوار بمنتهى البساطة. تظهر القلعة كأنه لا فائدة منها، مهلاييل أرادها ليجتمع أبناء آدم فقط، لتكون كقبلة لهم، كرمز يدافعون عنه، وحتى يترك النساء والأطفال بداخلها.

انفتحت الأبواب وخرج مهلاييل على رأس جيشه مترجلين.

ظهر السهل الممتد أمامهم كفراشٍ رمليّ مبسوط يدعوهم للنوم بداخله، وعلى طرفه الآخر يقف جيش الظلام.

في وسطه يجلسُ بعلزبول على عرشه الذي يحمله الجن الطيار، أبيض البشرة، جميل المحيا، يبدو وكأن البهاء يُشع منه.

ضحكته يُجلجل صوتها في أنحاء أرض المعركة، فتقصف بهدوء قلوب بني آدم وتبعثر اطمئنانهم.

يتقدم مهلاييل أمام جيشه، يرفع عقيرتهُ مخاطبًا بعلزبول وجنده؛ عارضًا عليهم السلام مرة أخرى، و.. وابتدأت المعركة.

استمرت المعركة طوال الليل، أبلى بنو آدم في أول حروبهم بلاءً حسنًا، لم يُهزموا سريعًا كما قدر الجميع، بدأ القلق يتسرب لأولاد سوميا، واختفت الضحكة من وجه بعلزبول.

قبيل الفجر مالت كفة النصر لأبناء سوميا أبو الجن، فالليل هو مملكتهم وهو على وشك الانتهاء، فحملوا بأقصى ما استطاعوا، واقتربوا من الأسوار حيث يقف مهلاييل مع آخر جنده، وتقدم بعلزبول في سرعة يريد رأسه.

ثم نزل السيف !!

نزل به ملكٌ لم يطأ الأرض بعدها أو قبلها قط!

سيفٌ صنع من نجم بعيد بعناصر غير أرضية

أول سيف ظهر على الأرض..

في اللحظة التي اقترب بعلزبول فيها، وقع مهلاييل وجنده على رُكبهم ورفعوا أيديهم بالدعاء

فاستجاب لهم الله.

أمسك مهلاييل بسيفه وأطاح بجند بعلزبول، تساقطوا كالجراد، ففر أغلبهم، وركب إبليس عرشه فطار به الجن الهوائي.

وانتصر البشر.

فيما بعد سيصبح نسل مهلاييل هم حفظة السيف؛ حفظة العهد، يتناقلونه من الأب إلى الابن تحسبًا للحظةِ استخدامه مرةً أخرى حين تخطر لبعلزبول فكرة السيادة من جديد. وستصبح بناتُ نسل "لامك" هن الزوجات المختارات لنسل "مهلاييل".

سيرجع العمَّار في نهاية المعركة ولا يهربون، يسترحمون مهلاييل فيأذن لهم، يرجعون ليختفوا عن الأنظار ويقيموا حول بني البشر

في بيوتهم ليستمروا كحلقة وصل بين البشر والجن الذين قرروا عدم الظهور علانية مرة أخرى إلا حين استدعائهم.

ستتقادم الأيام، وتجري الدهور، وسينسى الجميع هذه المعركة وهذا السيف، إلا حفظة العهد وبعلزبول، وعندما استشار في الظهور مرة أخرى، تنبأ أحد السعالي -سحرة الجن- بأن نهاية السيف ستأتي على يد بعلزبول أو أحد أبنائه حينما ينقطع نسل حفظة العهد، فصبر كثيرًا.

ويبدو أن لحظته قد حانت أخيرًا!

■■■

عذراء مترملة

(هل لا زالت ملائكة الحماية المزدوجة تحرسك؟)، تضحك لصديقتها وشريكة سكنها وهي تلقي السؤال.

جميلة هي كدأب أسلافها، ذات وجه مريح آسر، وعينان تشعان بالتصميم على الرغم من براءتهما.

تمتلك الأهل ولكنها تقيم مع صديقتها منذ وفاة والدة صديقتها - وهي ابنة عم لوالدها بالمناسبة- ؛ وذلك بمباركة من أهلها.

لم تكن ذات طموح مهني كصديقتها، ولكنها تعرف جيدًا ما هي مهمتها في الحياة وهذا يكفيها، ويربكها !.

كانت من نسل زوجات حفظة العهد، صديقتها لا تعرف هذا، ولا تدري أيضًا أن أباها هو آخر نسل مهلاييل وأن جدها المجنون هو آخر حفظة العهد.

المشكلة التي تواجهها بعيدًا عن معرفتها بنبوءة انقطاع النســل،

هي أنها من المفترض أن تكون الزوجة المنتظرة لآخر سلالة مهلاييل وأم حافظ العهد الجديد، ولا تدري هل انقطاع النسل يحل بنــات لامك من هذا العهد، أم أنها يتوجب عليها الزواج من الجد!

كان هذا يربكها بشدة، ولم تدر حقًا كيف يكونُ التصرف.

عندما مات أبو صديقتها، دفعتها أسرتها دفعًا لمصادقتها وملازمتها، كانت الأخبار تتناقل بانقطاع النسل داخل أسرتي حفظة العهد، كانت تلك هي الطامة الكبرى للبشرية، مما يعني فناءها أوأقل الاحتمالات استعبادها.

كانت صديقتها فعلًا من أفضل من قابلتهم في حياتها، حد أنها فكرت مرارًا بأن سليلة الملوك هذه قد تكون حافظة للعهد مُغيرة ما دأبت عليه الأمور دومًا، تعنت الجد وإقراره بأن النسل انقطع هو دائمًا ما كان يردها إلى رشدها.

وماذا عن الأخ المزعوم؟ تتكلم صديقتها دومًا عن أخٍ لها لم ترهُ قط، لم يصرح الجد بهذا أبدًا، ولم يتكلم عن ابنه الهارب أبي صديقتها، ولماذا هرب؟ كل تلك الأشياء تحيل صفاء عقلها إلى حرب أفكار ضروس.

مهمتها الوحيدة الآن هي حماية صديقتها الجامحة، التي ما كانت ستصدق حكاياتها عن الكلاب والحماية لو أنها لم تكن من نسل الحفظة.

والترقب حتى يتبين ما تخبئه الأقدار لهم جميعًا!

▪▪▪

الجزء الثاني

حكاية حافظ


عصير
الكتب

ولدت بلا أم، لا ليس أمرًا غرائبيًا من أمور الطبيعة، أقصد أنها ماتت وهي تلدني فلم تكن في حياتي منذ بدايتها، الغريب فعلًا أنني لم أجد لها صورةً أوتسجيلًا أو أقاربَ أو أي شيء يدل عليها، زاد هذا من حيرتي، وحتى عندما سألت أبي عنها، أخذ يشرح في مواطن حسنها ولم يذكر حتى اسمها، وحين استفسرت عنه لم يجب، وصرح لي بأن الأسماء ذات قدسية تنتهي بلفظها، لم أفهم مقصده لحظتها، ولكني فهمتُ بعدها.

اسمي هو حافظ.

وُلدت قبل ثلاثين عامًا من هذه اللحظة، كما قلت سابقًا، لم أعرف لي أمًا، ولم يتزوج أبي بعدها -أوهكذا أعلم- وكان نعم الأب حقًا.

لا أعرفُ كيف أبدًا الحكاية، هي حكاية أخرى كأي حكاية.

وَلَد يتيمٌ يعيش مع أبيه التاجر الذي كان يغيب أحيانًا لأيامٍ لظروف عمله. جسمٌ رياضي متناسق منذ الصغر، لياقة بدنية عالية، على قدر من الوسامة، وعيناي اللتان تشعان ببريقٍ - كما

يُصرح الجميع - تجذبان كل من يراهما. حكاية عادية إذن كبقية أخواتها.

فلماذا أحكيها؟!

تبدأ الخيوط منذ الصغر، تتجمع بتباينها لتبني بيت عنكبوتٍ يحيط بتلافيف مخك فتعلم أنه لا فكاك.

لم أختلط كثيرًا بأطفال في سني قبل سنين المدرسة، كانت طبيعة عمل والدي كتاجر تُجبرنا على كثرة التنقل، لم نستقر في العاصمة إلا بعد التحاقي بأولى صفوف التعليم.

في المرات القليلة التي حاولت اللعب فيها مع من هم في مثل عمري، قابلني نفورٌ هائل، وصدني فرارٌ غريب من ناحيتهم، لم أدرِ لماذا أوماذا أفعل، فقط زادني انغلاقًا وتحيرًا.

مع دخولي المدرسة لم يتغير الوضع في أول الشهور، نفر الجميع مني، كانوا يلعبون ويتجاهلونني، حين أدنو منهم يبتعدون، وحين أحاول التودد يتجافون، للدرجة التي جعلتني أجلس في مقعد وحدي دون شريك.

بعيدًا عن جفائهم غير المبرر، كنت دومًا ألحظ نظرة الخوف في عيونهم حينما أقترب منهم، النظرة التي استمرت حتى الآن لكل من

عرف حقيقتي، وكأن براءة الأطفال تدرك ما لا تدركه حكمة الكبار، تغير هذا الوضع بعد عدة أشهر، تقريبًا يطمس التعليم النظامي فطرتنا فنتصبغ بألوان الحضارة، غيَّر هذا التحول ناحيتي من أقراني من حالتي كثيرًا وأصبحت أكثر سعادة. ولكن قبل مرور الأشهر وتغير الحال، وأنا في قمة وحدتي وجفائهم، ظهر هو: صديقي الوحيد، "أحمد عبد السلام".

كنت أجلس وحيدًا كعادتي، وجاء هو إلى فصلنا.. تلميذٌ جديد، مقعدان خاليان في الفصل، اختار الذي بجانبي وجلس، وجهه ممتلئ بطيبة هادئة، رفيع الجسد، ثاقب النظرات كما عرفته دومًا، جميع حركاته يفعلها في هدوءٍ واثقٍ مستفز، ألمعيّ، يعمل أبوهُ شيخًا كما علمت بعد ذلك.

دخول أحمد حياتي غيرها كثيرًا هذه الفترة، أرجعني إلى حظيرة الطفولة الطبيعية، بدأت درجاتي في التحسن، اندمجتُ مع أقراني، وانعكس ذلك بطبيعةِ الحال على دراستي فأصبحتُ متفوقًا، فنضجت أولى أحاسيسي بكينونتي.

القرب من أحمد دائمًا ما يبعث الدفء في جوانحي، تفاهمنا المُطلق، وتعاملنا كأخٍ وأخيه بات هو المعتاد.

لم تحدث أشياء ذات بال، مجرد لهوِ أطفالٍ بريء، أوحدثت ولم تُلاحظ من طفلٍ بدأ يحب طفولته.

كنا قافلين من المدرسة أنا وهو، حملُ الحقيبة يحطم أكتافنا، إرهاق اللعب يُشكل تعابير وجهينا، فاقترحتُ عليه أخذ الطريق المختصر، طريقٌ مهجورٌ نسبيًا، كنا لا نسلكه غالبًا إلا في ضوءِ النهار، وقد أوشكت الشمسُ على المغيب في نهاية أسبوعٍ من آخر أعوامِ المرحلة الابتدائية.

رفضٌ متوقع منه، إلحاحٌ متكرر مني، فموافقة على مضض.

يتثاقلُ أحمد في خطواته كرجلٍ مَسوقٍ إلى مقصلة الإعدام، تهتز يداه في خوفٍ لا يتناسبُ مع طفلٍ بلغ العاشرة منذ فترة يسيرة، أضحك لأطمئنه.

تخلفت عنه خطواتٍ لأعقد ربطة حذائي، وعندما رفعت رأسي كانوا هناك يسدون علينا الطريق.

كلابٌ سوداء تقفُ كجيش منظم، المنظر يثير الرهبة في النفوس، التمست العذر لأحمد على رجفته وتمتمته غير المفهومة واهتزاز يده في تتابع، يفعلُ الخوف في النفوس أكثر من ذلك.

هل ارتعبتُ من هذا المنظر؟ لا، لقد زاد من إثارتي أضعافًا، أحسستُ بأنه منظر مألوف، لم أرهب الكلاب يومًا، وقد أنقذني أحدهم وأنا صغير قبل دخولي المدرسة من عربة كادت تدهسني عندما تعلق ببنطالي، أسودٌ كان هو الآخر، ومن ساعتها اعتبرت كل الكلاب السُودِ أصدقائي.

زمجر قائد مجموعة الكلاب مكشرًا عن أنيابه، تراجع أحمد خطوةً خائفة، فتقدمته وأنا ابتسم، ظللت أتقدم حتى وقفت قبالتهم مباشرة، مددتُ يدي وربتتُ على عنقهِ فلان، نظروا إلى بعضهم البعض وهسهسوا في خنوعٍ ثم انصرفوا مفسحين لنا الطريق.

انتشاءٌ لم استطع مداراته طوال بقية الطريق، وصمتٌ مُطبقٌ لم يكسره أحمد، وتغافُل عن هذا الحادث إلى الأبد، كانت تلك هي المحصلة.

دخلتُ المرحلة المتوسطة من التعليم، استقرار الحياةِ بات أمرًا اعتياديًا، أبي في المنزل، أحمد في المدرسة، التفوق في التعليم، ولعب الكرة باحترافية، كل شيء يسيرُ في طريقهِ الطبيعي بلا أي تعرجات.

ثم ظهرت هي!

سارة، التي تسرُّ ناظريَّ متى رأيتها.

ملاك أبيضُ البشرة، ذات عيونٍ عسليةٍ آسرة، شعر أسود فاحم، وابتسامة جذابة توقعك لحظيًا في شراكها.

تلميذة جديدة هي، لم أرها مختلطة مع زميلاتها، نسخة نسائية من حافظ القديم، وتهافت جميع صبيان المدرسة على نيلِ رضاها بلا جدوى، كنت أعرف أنها لي منذ النظرة الأولى، ومع ذلك لم أستطع أبدًا أن أنالها!

خالد إبراهيم كان زعيم صفنا، ضخم الجثة، وسيم الملامح، مع غباءٍ واضح يشع من حركاتِ وجهه يليق به كزعيم.

ضايقها مرارًا وعزفتُ أنا عن التدخل، ليس خوفًا منه، أنا لم أخف أبدًا قبل ذلك، بل هو من رأيت في عينيه دومًا نظرة الخوف المعتادة؛ وقد يفسر ذلك عدم تعرضه لي بتاتًا.

لم أتدخل خوفًا من تفكيرها بأنني أتودد لها، حتى كنا يومًا في معمل للكيمياء، طالما أسرني ذلك العلم العجيب الأقرب للسحر، وجلست هي وخالد بالقرب مني. تركنا المدرس وخرج وقد أعطانا تعليمات بدمج بعض المواد، وفي حركة مفاجئة مني ارتطمتُ بها،

فتعلقت سلسلتها بآلة على المكتب؛ فوقعت منفصلة ناثرة حرف الـ "S" الذهبي المُعلق بها بعيدًا عنا.

قمتُ معتذرًا بسرعة وباحثًا عن الحرف الذهبي، ولسوء حظي سبقني إليه خالد، نظر إلى رفاقه نظرةً خبيثة، ثم بأحقر ضحكة رأيتها منذ مولدي، أمسك بالحرف ورماهُ في النار الصغيرة الموقدة على منضدة المدرس، توهج المعدن تزامنًا مع شهقةِ سارة المُلتاعة من فقدها إياه.

لم أدرِ ماذا فعلت أوكيف فعلته، تحركتُ بسرعة غيرَ عابئٍ بشيء.. لا لم أضرب خالد، هويفوقني قوةً بأيةِ حال، مددتُ يدي داخل النيران، لم أحس بحرارتها -تذكرت فيما بعد- أمسكتُ بالحرف وأخرجته، ذهبت إليها وأنا ممسكٌ به متوهجًا، كانت ممسكة في راحة يدها اليسرى بالسلسلة المقطوعة، فوضعته في وسط راحتها، لتخرجني شهقتها -التي سببها المعدن الملتهب- من غفلتي، وليقع الحرفُ مجددًا على الأرض وسط نظرات البقية إليّ بعيون شاخصة تكاد تقفز من محاجرها.

العلامة التى سوف تبقى للأبد في راحةِ يد سارة، نظرة الخوف في عيني خالد بالذات، انشغالُ أحمد بتجربته وكأن شيئًا لم يكن، كلها وضعت في ذاكرتي أثرًا لم ينمحِ أبدًا.

فيما بعد سألت أحمد لماذا لم يتدخل أويمنعني أويحميني من تهوري إن لم يكن من خالد، فأجابني بأن بعض الأشياء من الأفضل لها أن تحدث دون أن نتدخل، ساعتها تتخذ الحياة مسارها الطبيعي الذي قُدر لها مسبقًا، لم أتوقع أن يقول من في نفس سنه هذا الكلام، وتعجبتُ بأن من في مثل سني فهمه!

بعد حادثة المعمل لم أرَ سارة مرة أخرى، قيل بأن والديها رحلا لمدينةٍ بعيدةٍ وأخذاها معهما. وعادت حياتي لرتابتها المميتة.

عندما انتقلتُ للمرحلة الثانوية لم يتغير شيء ذو بال، غير غياب أبي الذي زاد بسبب تجارته، وعنفوان جسدي الذي أصبحت نيرانهُ تضطرمُ بداخلي باستمرار، قال لي أبي أنها حرارة الشباب، وأخبرني أحمد أن مادة خلقنا مختلفة؛ كل شخص تتفاوت فيه ذرات خلقه، وأنا ذرات نيراني كثيرة نسبيًا، لم أفهم كلامه كعادتي منذ دخولنا مرحلة الثانوية، صار أكثر نحولًا وأقرب للصمتِ منه للكلام، بدأ زملاؤنا يخافونهُ بسبب نظراته.. ظل صديقي رغمًا عن أي شيء.

غيابات أبي المتتالية بدأت تُقلقني، بالأخص عندما رجع مرة أو مرتين مصابًا، وتحجج بحادثة سير وقطاع طرق، لم أستسغ حكاياه ووافقتهُ بدون جدالٍ تجنبًا لعصبيتهِ التي جدت عليه في تلك الأيام.

كنتُ قد توقفت عن سؤاله عن عائلتنا أو أمي منذ زمن، تكرر التفكير في عقلي مرارًا، فصارحته، أخبرني بأنني سأعرف كل شيء في وقته، وهويحاول بأقصى ما يستطيع أن يصلح ما أفسده هو قديمًا وما زاده الزمن فسادًا، فابتلعتُ كلامي منذئذ ولم أصرح مجددًا.

جاء اليوم الذي تأخر فيه أبي ولم يأتِ، لا لم يكن مسافرًا للتجارةِ كدأبه، لم يُبلغني بشيء، أويبعث إليّ بمن يطمئنني.

يومان وأنا لا أعرف ماذا أفعل، يقتلني الشك ويمزقني من داخلي القلق. وفجأة دق باب المنزل بعد منتصف الليل، فتحتهُ لأجد أبي متشحطًا في دمائه، ينزفُ من بضع مواضع في جسده، ووقع بين يدي فاقدًا وعيه.

حملتهُ على فراشه وطببته بالقليل الذي أعلمه، لم تكن حالتهُ بالغة السوء كما توقعت، وتركته نائمًا حتى مساء الغد، استيقظ فزعًا، وفزع أكثر بعدما علم بأن يومًا كاملًا على قد مرَّ على رجوعه.

قام من سريره مسرعًا، كنت أحضر له طعامًا فرفض؛ قال أنهُ ليس هناك وقت، لم أعلم لماذا، أمسك بيدي وقال إننا يجب أن نفر، نفر من ماذا!!

لم أفهم شيء يومًا، وسأفهم الآن شاء أم أبى، لم أشعر قبلًا بمثلِ هذا التمرد على أبي، ولكن لا، (**يجب أن أفهم ويجب أن تجيب**)، أقولها له وحرارةُ جسدي ترتفع، حتى أحسستُ بصهدٍ يخرج مني يكاد يحرق المكان حولي.

نظر لي نظرةً مُستكينة، تلألأت بضعُ قطراتِ دموعٍ في عينيه، ترك يدي وتراجع خطوتين ليسقط على كرسي قريب.

(**كم تبلغ من العمر الآن، أليس عُمرك ستة عشر عامًا؟**)، لم أتوقع أن يبدأ كلامه بمثل هذا السؤال.

(**بلى، أبلغ ستة عشر عامًا ونصف**)، أجيبُ في دهشةٍ لم أستطع إخفائها.

يقف صارخًا: (**إذن أين الخطأ؟ بقيت ستةُ أشهرٍ كاملة، لماذا بدأوا الآن وقد اقتربتُ من أصلًاحِ خطأي الذي لا يغتفر**)، يداهمه الإرهاق مرة أخرى من كثرة ما فقد من دماء، فيقع جالسًا على كرسيه من جديد.

لم يُثر وقوعه شيئًا بداخلي، عدم فهمي لأي مما يجري يحيرني بشدة، ولا يدفعني لاتخاذ أي قرار.

(**ماذا هناك يا أبي؟**)، لم أعرف قولًا آخرَ يُمكنُ أن أتلفظ به.

ثم جاءت لي فكرة: (**هل تهرب من أحد بسبب تجارتك ؟**)، لم ترِد على ذهني خاطرة أفضل.

نظر إليّ بعينٍ خاوية: (**أنت أكملت سبعة عشر عامًا قمريًا، كان هذا خطأي الحسابي اللعين**)، يقف فجأة ويمسك بذراعي مرة أخرى، (**يجب أن نفر الآن، بقي..**)، أقاطعه صارخًا: (**لا**)، ينظر مرة أخرى في استكانة مرجوة، يجلس مجددًا، ويضع رأسه بين يديه.

لحظة من الصمت طالت، رفع رأسه مرة أخرى، (**ماذا تريد أن تعرف بالضبط ؟**).

(**كل شيء**)، أجيبُ مسرعًا.. أكررها مرة أخرى: (**كل شيء**)

(**من نحن؟ أين عائلتنا؟ أين أمي؟ ومن هي؟ ممَ أوممِن مَن نهرب؟ ولماذا نهرب؟**)، أسكتُ هنيهة ثم أضيفُ مؤكدًا: (**كل شيء!**).

(**الأمر يطول شرحه**)، كان رده كما توقعتُ تمامًا، (**هناك خطرٌ داهم يهددنا، ويجب أن نفر حالًا. هناك أبي الذي طردني من مملكتهِ المزعومة. هناك أمك التي لا يغفر قومها ما فعلته. وهناك أشياء آن لك أن تعرفها، ولكن لنفر أولًا**).

(**لي جدٌ، وعائلةٌ أم**)، أقولها وقد فقدت كل أمل للمقاومة.

يتهدج صوتهُ مرة أخرى، يقف ممسكًا بكلتا ذراعي، (**أرجوك يجب أن نفر الآن، كل جروحي هذه من مقاومتي لهم، بقي يومٌ ولن أستطيع حمايتك منهم، وحده جدك يستطيع، وأرجو ألا أكون مخطئا حسابيًا مرة أخرى**).

(**بل مخطئٌ يا ابن الحافظ**)، يتردد الصوت الأجش من العدم، يسري بداخلي أول شعور خوف أختبره في حياتي، تنتصب الشعيراتُ على ساعدي، هل أبي هو"ابن الحافظ" هذا؟ اسم أبي محمد واسم أبيه مصطفى، إذن من هو"ابن الحافظ" ؟.

يفتح أبي عينيه على آخرهما وهويلتفتُ في رعبٍ مطبق، ثم تبدأ جروحه في النزيف مرة أخرى، يتهاوى على الأرض، فأتبعه وأرفعه بين ذراعيّ، ينظر لي في رعب، يتدفقُ الدم من كل فتحات جسده ومن عينيه، تعرف الدموع طريقها إلى عينيّ، وكان الشيء الوحيد الذي قاله لي: (**لا تثق بهم، أنت ابني أنا، لك جدٌ فجِده**).

يغمض عينيه تاركًا إياي وحيدًا في عالــــمٍ لا أعـــرف به أحدًا ولا أعرفهُ نفسه حقًا.

توضع يدٌ ثقيلة على كتفي، (**لا تخف**)، يقولها الصوت الأجش

مرة أخرى، لا أستطيع فتح عيني حتى لا تنهمر دموعي، أبتلعُ ريقي في ضعف.

(**قُم معي يا ابن لاقيس، هيا لتنضم إلى قومك، نبحث عنك منذ مولدك وها قد وجدناك أخيرًا**)، يكمل الصوت الأجش كلامه، لا أتحرك، ألف فكرة تدور في عقلي، ولا أستطيع أن ألتقط إحداها.

يمسكني من ذراعي في خشونة، ويرفعني لأقف على قدمي، ألتفت وأفتح عيني لأرى وجهه، وجه قاتل والدي، أسمر البشرة، طويل القامة، يختلط بياض عينيه بصفرة دليلًا على أصله الزنجي.

(**ابن شمهورش هو اسمي**)، يقولها في ثقة، (**ستتعرف أكثر علينا بعد ذلك**)، ينظرُ داخل عينيَّ الدامعتين في قوة، تخترق نظراته داخلي، لم أشعر تجاه قاتل أبي بالكراهية كما يجب، (**سنرحل الآن، وسأفهمك كل شيء عندما نستقر**)، يدفعني أمامه لنخرج عبر الباب نزولًا على الدرج المُفضي إلى الشارع، في آخر الدرج همس بفحيحٍ يشبه صوت الأفاعي: (**ابن شمهورش هو أنا، لقد وجدت ابن لاقيس وهو الآن معي**)، يتموجُ الهواء أمام كلماته هذه وينتقل كسحابةٍ صفراء باهتة خارج البناية.

■■■

(لا تثق بهم، أنت ابني أنا، لك جدٌّ فجِده)

تتردد كلمات أبي في عقلي ونحنُ نخرجُ من المنزل، وفي اللحظةِ التي ترك ذراعي فيها كنتُ قد اتخذت قراري، أطلقت ساقيّ للرياح وانطلقت أجري لا ألوي على شيء، أريد الهرب فقط، سمعت خطوات جريه ورائي تقترب، الخوف يتزايد بداخلي، والدموعُ تنهمر مرة أخرى على وجهي، لا أعرف إلى أين أهرب، يا ليتني لم أجادلك يا أبي وهربنا، أين يمكن أن أهرب؟ أغمضت عيني وأنا أجري في الشارع المظلم الجانبي، بعد ولوجي به.. أجري وأبكي وأريد أن أصرخ، وفجأة قفز في رأسي اسمه، صديقي الوحيد، أتمتم بداخلي: (**أريد أن أذهب إلى أحمد**)، أكررها في قوة، (**أريد أن أذهب إلى أحمد**)، أحسست بتفريغ للهواء من حولي، وقفت فجأة، وحين فتحت عيني، كنت أقف أمام باب منزله !.

أنظر ورائي فأرى درجات سلم بيته، هل كنت أحلمُ منذ ثانية، ما الذي حدث، أنظر إلى يدي وملابسي، قطرات دم أبي عليهم تؤكد

عدم جنوني، لم يعد هناك وقت للتعجب، أستجمعُ شجاعتي وأطرق الباب.

مرت دقيقة كاملة قبل أن يفتح أحمد الباب، يقف صامتًا، نتبادل نظرات قلقة، ثم يُفسح لي لأدخل دون أن نتبادل كلمات.

هو صديقك.. ذاك الذي يفعلُ ثم يتكلم.

أجلس مرهقًا على أول مقعد يقابلني، أدفن رأسي داخل يدي، يدخل أحمد المطبخ، صوت صب مياهٍ بداخل كوب، واهتزاز معدني من اصطدام أدوات منزلية ببعضها.

يخرج ليجلس بجانبي، مقدمًا لي كوب ماء، أشربه على مرة واحدة علّه يطفئ النار التي بداخلي قليلًا.

(**كيف دخلت إلى هنا**)، أنظر إليه لا أعرف كيف أجيبه، (**باب البيت الرئيسي مغلق، أغلقته قبل عشر دقائق من الآن، بنفسي، وأنا متأكد جيدًا مما أفعله**)، لم أعلق، لا يحتاج أحمد إلى تعليق، هو يقرر حقائق، ولأول مرة منذ زمن يتكلم طويلًا هكذا!

يقومُ مرة أخرى ليدخل المطبخ، (**أين كنت يا حافظ ؟**)، يملأ ماءً مرة أخرى، (**كنت في المنزل مع أبي**)، أجيبه مستسلمًا، صوت

اصطدام معدني آخر، يبدو أنه يعد مشروبًا، (**وماذا حدث ؟**)، تبدأ النيران بالتأجُج في داخلي مرة أخرى، أسكت لا أرد عليه.

يخرج ليقف على باب مطبخه، واضعًا يديه الاثنتين وراء ظهره، الشقة خالية، أعلم هذا، منذ تُوفي والداه قبل سنتين، ينظر لي بتحفز، أبادله نظرات متحدية، طال الصمت لدقيقتين طويلتين، ثم قطعه قائلًا: (**لم تجب على سؤالي**)، أستنشقُ الهواء بقوة، أزفره غاضبًا ثم أصيح: (**مات أبي**)، لم يحرك ساكنًا، لم تتبدل تعابير وجهه البتة، الوغد مدعي الصداقة، بكل برود يسألني: (**وكيف حدث هذا؟**)، تتصاعد موجات الكراهية بداخلي، سأقتل هذا الوغد، (**لا أعرف كيف حدث بالضبط**)، أجيبه وأنا أضغط على أسناني بقوة ممسكًا نفسي عن التهور، بمنتهى الهدوء يتكلم: (**فلتحكِ ما حدث**)، لم أستطع التحكم في نفسي أكثر من هذا، لم أعرف ماذا سأفعل، ولكني قمتُ واقفا لأهجم عليه، فرق البناء العضلي بيننا في صالحي، كانت معركة محسومة من قبل أن تبدأ، ورغم ذلك لم يحرك ساكنًا، يزداد حنقي تجاهه، (**لا تفكر حتى**)، يباغتني قوله، أفتح عينيَّ عن آخرهما، أزأر فعليًا، وأهمُّ بالهجوم عليه، ليباغتني مرة أخرى بخنجر فضي مشهرًا إياه بيده اليسرى، (**قلت لك لا تفكر حتى**)، ثم تبرز يده اليمنى، محركًا أصابعه للأمام

كالمخالب، موجهًا باطن يده في اتجاهي، يلف يده يمينًا ويسارًا في إيقاعٍ بطيءٍ مُستفز، متى رأيت هذه الحركة قبلًا؟ نعم نعم، عندما واجهنا الكلاب في الشارع المظلم ونحن أطفال، إذن لم يكن خائفًا، يتمتم بعبارتٍ غير مفهومة كما فعل ساعتها أيضًا، مسموعة بالكاد، تتراجع مقاومتي، تهدأ النار بداخلي

يتقدم ببطءٍ نحوي

أتراجع خطوة

يتقدم هو مرة أخرى

أجلسُ على مقعدي

هناك بردٌ يغطي نار جوانحي، برد يسحب كل كراهيتي لصديق عمري ليحل محلها دفءُ علاقتنا المعتاد، (**اهدأ يا حافظ**)، يقولها بلهجة أبوية، أستكينُ في مقعدي في هدوء، ثم يباغتني لمرةٍ أخيرة: (**اهدأ أيها النصف جنيّ**)، فأفقد وعيي على الفور.

■■■

الجزء الثالث

حكاية جانبية

أفيق بعد ساعاتٍ لا أعلم عددها، أجد نفسي نائمًا في فراشٍ نظيف، بجانبي يجلس أحمد تُزين وجهه ابتسامة لم أرها منذ زمن، (**حمدًا للهِ على سلامتك يا صديقي**)، يقولها بودٍ فعلي، أبتسمُ رغمًا عن إرهاقي ولا أستطيع الكلام.

(**من حقك تفسير، ولكن لتسترِح قليلًا مرة أخرى، وعندما تستيقظ سيكون بيننا كثيرٌ من كلام كسابقِ الأيام**)، يبتسم مرة ثانية ثم يقوم ويتركني، ليسقط عقلي مرة أخرى في سبات عميق.

أصحو مع بداية ضوء النهار، يومٌ جديد تغيرت فيه كل حياتي التي كنت أعرفها قبلًا، لا أتذكر كثيرًا مما حدث البارحة، موت أبي ودخولي شقة أحمد ثم ضبابٌ يغلف عقلي لا أرى من خلاله شيئًا، أخرج من الغرفة لأجد أحمد يضع الفطور على المنضدة، أجلس بعد تحيات الصباح لنلتهم فطورنا في صمت، نخرج بعدها لنقف في الشرفة، في يد كل منا كوبٌ من الشاي الدافئ، وفي قلب كل منا كلام يجب أن يُحكى.

(أرى هالاتٍ دومًا حول الكائنات الحية، هذا هو سري الصغير)، يبدأ أحمد حكايته، يسرح قليلًا ثم يكمل كلامه:

(أبي كان شيخًا كما تعلم، له خبرة ودراية بمثل تلك الأمور، يفهم جيدًا ما يفعله، ونحن نسلٌ عظيم يمتدُّ لعصر الملك سليمان، جدي هو آصف الذي أتى بعرش بلقيس إن كنت تعرفه).

لم أفهم ماذا يقول أوفي أي شيء يتحدث.

(ولدت بتلك المعرفة، دعني أطلق عليها معرفة، عندما أرى أي كائن حي، إنسان، حيوان، نبات، أوحشرة، أرى هالة حوله، كلٌّ له لونٌ مختلف، يختلف من نوع لآخر، ويختلف أحيانًا في نفس النوع أيضًا).

بدأت أدرك قليلًا ما يقوله.

(في البداية لم أفهم، اعتقدت أن الجميع مثلي، كل الناس يرون ما أرى، يقالُ أن الأطفال قبل الإدراك يفهمون أو يحسون بتلك الأشياء، لا أعرف حقًا ما الخطأ من الصواب، وعلمت بعد فترة أنها مزيّة لا يملكها غيري في من أعرفهم على الأقل).

إلامَ يريد أن يصل بكلامه هذا؟

(صارحتُ أبي بتساؤلاتي هذه، ولقد كان متفهمًا حقًا، قال لي إن هذا هو سرنا الصغير، وأوصاني ألا أخبر أحدًا حتى أمي، وفعلًا حفظت ذلك الوعد حتى هذه اللحظة).

هل كان يخدعني إذن طيلة هذه السنين؟ وكيف يخدعني بشيء ليس له يدٌ فيه؟

(خُلق الإنسان من تراب وماء، فأرى هالتهُ من أربعةِ ألوان، الأصفر التُرابي، والرمادي الأرضي، والأحمر الفخاري، والأسود الطيني، أحيانًا تكون لونًا خالصًا، وأحيانًا تكونُ خليطًا منها).

عاد الغباءُ يهاجمني مرة أخرى ولا أعي كلامه.

(الأصفر هواللون الأحقر، كان دائمًا يلازم أراذل القوم، الرمادي هوالسائد، المُعتاد من البشر، الفخاري لون الفاعلين في الحياة؛ مغيروها ومحركوها، أما الأسود فهواللون الأخصب كما الأرض، لون الأخيارمثلما اعتدت أن أقول، وعرفتُ بعد ذلك أنه لون أنقياء النسب أيضًا).

(وما هو لوني؟)، أخيرًا أتكلم.

(كان لونك هو الأسود)، يجيبني بجدية.

أسكت هنيهة ولا أعقب، فيكمل حديثه.

(عندما رأيتك أول مرة تجلس في الفصل منبوذًا، تُحيط بك هالتك السوداء، تعجبت براءة الطفل داخلي؛ أن يُنبذ الأخيار، لم أعلم ساعتها أن هذا هو ديدن الحياة، ولكن هالتك كانت مختلفة، هُناك شيءٌ فيها لم أتبينه وقتها، لاحظته فيما بعد، وقت حادثة الكلاب لوتتذكرها).

(**نعم أتذكرها**)، أضيف معقبًا، وأكمل لنفسي أني دائمًا أتذكرها.

(الشيءُ الغريبُ في هالتك أن اللون الأسود ليس لونًا واحدًا).

(**لا أفهم!**)، أقولها وقد بدأ كلامه يشد انتباهي.

(هالتك مُكونة من مزيجٍ من لونين أو درجتين للأسود، نصفٌ لامع كالطين، ونصفٌ مطفأ كالليل البهيم، طفلٌ صغير مثلي لم يكن ليلاحظ هذا الفرق، مع حادثة الكلاب تبيَّن جليًا).

(**لماذا حادثة الكلاب بذاتها؟**)، أسأله في انتباه.

(لقد تعودت أن أرى الحيوانات والنباتات بلون واحد لكل فصيل، ليس لديهم تنوعنا من الهالات إلا في حالات نادرة، الكلاب لها لون بني مائل للحمرة، جميعها كذلك، في حادثة

الكلاب، ظهرت هالاتها بشكل مختلف، أخافتني الهالات، لم أكترث لعدد الكلاب أوزمجرتها، هالاتها هي ما شغلت وجداني).

(كيف كانت الهالات؟)، أستجوبهُ في فضول.

يسكت دقيقة كاملة، ثم يُضيف في حسم:

(كانت سوداء معتمة!)، يتنهد ثم يكمل بصوت خفيض: **(كنصف هالتك يا صديقي)**.

لم أعرف بماذا أرد، لازمنا الصمتُ فترة، كانت نسمات هواء الصباح تنعش أرواحنا المثقلة، ونور الشمس يغسلُ قلوبنا بصفائه، ولسانانا لا يزالان معقودَين لخوفهما من مجرى الكلام.

أستجمعُ شجاعتي وأسأله: **(وهل عرفت ماهية هذا اللون؟)**.

يشير بعلامة الموافقة برأسه وهو مُحدق في الأفق.

يستنشق نفسًا عميقًا، يخرجه في تأنٍ، وعندما يُطيل الصمت أسأله مرة أخرى: **(وما هو؟)**.

(عندما رجعت ذلك اليوم سألت أبي، بالمناسبة أبي كأبيك: كانا يملكان هالة سوداء طينية، ومن المُفترض أن نملكها نحن أيضًا، لم يجبني أبي صراحة، ولكنه ألمح إلى أن تكون الكلاب ذات

أرواحٍ متمردة أو ما شابه، ونهاني أن أمشي في ذلك الشارع مجددًا).

أنظر إليه مليًا، (**لم تجبني**)، أقولها في صرامة.

لا ينظر إليّ، يكمل شرب كوب الشاي الذي أوشك على الانتهاء، يعقد حاجبيه في تفكير، وكأنما يزن فكرة ويفاضل بين قولها أو كتمانها.

متجاهلًا كلامي أضاف قائلًا: (**سبق وقلت لك أن أبي كان شيخًا وكان يعرف في أمور الغيبيات وله تجاربه فيها، لم يستهوني السؤال في الصغر، كنت أملك قليلًا من معرفته؛ التي واجهتهم بها في الشارع المظلم لوتذكر، بعد حادثة الكلاب بدأت أسأل كثيرًا، ورضخ أبي أخيرًا، فأفاض من علمه عليّ، فسر لي بعد ذلك أنني وريثه الشرعي، وكان يريد فقط تأخير نقل تركته، وحادثة الكلاب أسرعته وخيرًا فعلَتْ**).

يخيم الصمت على كلينا مرة أخرى.

(**مات أبي بعد هذه الحادثة بأربعة سنوات، مات هو وأمي وأصبحت وحيدًا، ولم يكن هُناك غيرك في حياتي)**

أنظر إليه بعبوس، **(أنت ابتعدت عني كثيرًا حتى قبل وفاة والدك)**، أتمتم بصوت خفيض.

يكمل كلامه وهو يحدق في الفراغ وكأنه يتجاهل وجودي: **(لم يكن موت والديّ جراء حادثة سيارة كما يعلم الجميع، لقد كان قتلًا، قتلهما أعداء والدي، ولم أستطع أن أصرح)**.

أُفاجئ من المعلومة الجديدة.

(كان ابتعادي عنك بسبب العلم الذي أورثني إياه والدي، كنت أنهل منه، في البداية خِفت منك، ثم التمستُ لك العذر، صرت إلى الصمت أقرب، لم يعد الكلامُ يعنيني، أصبح أمامي هدفٌ محدد، هو أن أعرف كل ما يملكه أبي قبل أن يفارقني، توقع هو موته واقتراب أجله، وأراد مني أن أكمل مسيرته، أوصاني بك، وفي النهاية رحل بعد أن استطاع حمايتي)

دمعةٌ عابرةٌ تتلألأ في عينيه، أظل ساهمًا أنا الآخر.

(خُلق الجان من نار، فقسموا إلى أربعةِ أنواعٍ بألوانها، الأصفرُ عوام الجن؛ العمَّار، من يكونون حولنا دائمًا ويشاركوننا منازلنا وهم صلتنا بعالمهم، الأحمر شرارهم؛ وهم من يعادوننا ويعتبرون أننا أخذنا مُلكهم المسلوب في الأرض، الأزرق هم الطيارون، ومنهم

العفاريت أيضًا، أما الأسود فهو للأبالسةِ نسلِ بعلزبول)، يأخذ نفسًا عميقًا ويُكمل: **(هناك أنواعٌ كثيرة مثل الغيلان والمردة والعمالقة تندرج تحت الأحمر، وهناك تقسيماتٌ أخرى مثل الجن الترابي، الهوائي، الناري، والمائي، على حسب محلِّ تواجدهم)**.

يظهرُ الغباء على قسمات وجهي.

(أنا لا أرى الجن، إنما أرى هالاتهم بنفس لون خلقهم عندما يتجسدون).

تزداد علامات عدم الفهم عندي.

ينظر لي بود، **(ألم تفهم بعد أيها الأحمق؟)**.

(أفهم ماذا؟)، أصرخُ بها وأنا متوقع رده.

(أنت نصف إنسان خيّر ذي نسبٍ عريق، ونصف إبليسيّ، أنت هجين إنسان يا صديق، وهو شيءٌ لعمري نادرُ الحدوث)

أبتلعُ ريقي في صعوبة، وتجحظ عيناي، الآن أتذكر أحداث الأمس كاملة، الآن أعرف لماذا دعاني بنصف الجنيّ.

(على حد علمي، عند تزاوج الإنس مع الجن يصبح المولود دائمًا جنيّ، أما أنت فأكملت في بني الإنس ولا أعرف السبب)

ينفرغ فمي عن آخره، لا أدري ماذا أقول..

(مهمتنا الآن أن أحميك من شططك، مثل ما كنت ستقتلني البارحة، ونبحث عن نسبك لنعرف من أنت).

يسكت قليلًا، **(ه بالمناسبة أنت لم تقل لي ماذا حدث البارحة في بيت والدك رحمه الله).**

أفيق من غفلتي قليلًا، أنظر إليه مشدوهًا، ثم أفرغ كل ما في جوفي من كلام وأحكي له ما حدث.

ظل أحمد صامتًا طوال مدة حكايتي التي ربت على الساعة، يزُم شفتيه أحيانًا، يعقد حاجبيه أحيانًا أخرى، ولكن لم يفقد تركيزه أبدًا.

(إذن فابن شمهورش انضم لجيش الجحيم، هذا غريب)، أول ما نطق به بعدما انتهيتُ من حكي أحداث الأمس.

جلس يفكر في تركيز، ثم طلب مني أن أحكي الأحداث المثيرة في حياتي، والتي يعلم أو يشارك في أغلبها، لم يستوقفه شيء غير إنقاذ الكلب الأسود لي، الحادثة التي لم يسمع بها قبلًا.

يطل الصمت علينا كمظلة تقينا حر الشمس التي توسطت السماء، نقفل عائدين لداخل المنزل، وأحمد مكمل في تفكير عميق، أحترم سكونه وأحاول أن أستريح في مكاني قدر المستطاع.

(**إذن لنرتب أفكارنا المبعثرة**)، ينطقها أحمد في خفوت.

- **أولًا هناك ابن شمهورش قاتل والدك، شمهورش ملكٌ عظيمٌ من ملوكِ الجان وقاضيهم الأول، معنى أن ينضم أحدٌ من نسله إلى بعلزبول أن الأمر فاق التوقعات.**

- **هل يمكن المزيد من الإيضًاح؟.**

- **إبليس، عزازيل، بعلزبول، ملك الظلام، أو الشيطان كلها أسماء للمطرود من السماء، هناك حكاية قديمة عن جيش الجحيم الذي جمعه لقتال بني البشر بعد موت أبيهم آدم، الجيش الذي هُزم وتفكك بعد ذلك وانحلت فرقه، الجن أنفسهم تفرقوا على ديانات ومذاهبَ عدة مما أضعف سلطة بعلزبول بينهم.**

- **وهل شمهورش عدو لبعلزبول ؟.**

- **الأمر ليس بهذه البساطة، فلنضرب مثلًا قريبًا لعالمنا، هل هناك قاضٍ في دولةٍ غربية يصبحُ عدوًا لقاطعِ طريقٍ في دولةٍ**

شرقية؟ الأمر قريب من هذا، هذا لهُ عالمه وسلطانه وهذا يملك ناصية الظلام ويحكم فيها بمراده.

- وأين يعيشون ؟.

- في كل مكانٍ حولنا ولكن لا نراهم، هناك من يتحدث عن العوالم الموازية، هناك من يتحدث عن الحُجُب وأشياء أخرى.

- مممممم، وما مشكلة ابن شمهورش هذا؟.

- انضمام ابن شمهورش لجيشِ الظلام أو الجحيم معناه أن معركة الشيطان الثانية باتت قريبة

- الثانية؟؟.

- نعم، لقد سبق وقلتُ لك أنه جهز جيشًا لقتال بني آدم بعد وفاة آدم عليه السلام، وحمدًا لله انتصر مهلائيل - حفيد آدم - ساعتها.

- وهل اسمه جيش الظلام أم الجحيم؟.

- أطلق عليه بعلزبول جيش الجحيم، حيث سيفتحُ على بني الإنس بواباته به، وأطلق عليه البشر جيش الظلام، حين تجمعت فيه كل القوى المُعادية لهم، وهناك من يصفه بالجيش الأسود دلالةً على شره.

- ولماذا صبر الشيطان كل هذه الفترة ولم يحارب ثانية ؟.

- الكثير من الأقاويل تُحكى عن تلك المعركة، لا توجد أدلة قوية على أي شيء، قيل بأن الملائكة نزلت وقاتلت بجانب البشر، وقيل أن البشر استخدموا أسلحةً لا تقهر، وشاع أن جنود الجن خانوا إبليس، وهناك من يرفضُ وجود المعركة من الأساس.

- هذا لم يُجب على سؤالي؟.

يسكت أحمد قليلًا ليزن كلامه كعادته، **(توجد معلومة لا يعرفها الكثيرون، عن سيفٍ نزل من السماء قاتل به مهلائيل، وعن نسلهِ الذي يحافظ على السيف وعلى توازن القوى مع بعلزبول، وعن نبوءةٍ تذكر انقطاع هذا النسل وظهور إبليس ملكًا للأرض مرة أخرى).**

أفكر في كلامهِ جيدًا ثم أسأله: (**وهل تُصدق مثل هذا الكلام؟**).

- الشواهدُ قويةٌ لدرجةِ أن عدم تصديقي يصبح خيانة لتركة أبي.

- وما هي هذه الشواهد؟.

- أنت!!.

- أنا؟؟.

- نعم أنت يا حافظ، أولًا هناك اسمك، حافظ، ثم ابن شمهورش الجنيّ الذي قتل والدك، وهناك اللقبُ الذي نادى به والدك رحمه الله، "ابن الحافظ". ثم يليهِ تسميتهُ لك أنت بابن لاقيس، ألا يذكرك هذا بأي شيء؟.

- البتة !.

- ألم يُحدثك والدك عن أي شيء مثل هذا قبلًا.

- لا.

تظهر الخيبةُ على وجهِ أحمد ثم يقول: (**هناك الكثير الذي يجب أن تعرفه يا صديقي**).

أنتظرُ تكملته في صمت.

(نسل مهلائيل، حملة السيف، سلالةُ ملوك الأرض، سُموا بحفظةِ العهد، تسمية غير منتشرةٍ ولا يعرفها الكثيرون، حافظوا على السيفِ السماوي الذي قيل أنه صُنع من أسوارِ الجنة، وحفظوا عهدهم بقتالِ بعلزبول حين ظهوره، ونقوا سلالتهم فلم يدخلها دم غريب).

يلتقط نفسه وأحسُّ بإثارةٍ في صوته وهويسأل: (**حافظ وابن الحافظ، ألا ينبهك هذا لشيء؟**).

أجيبهُ وأنا أفتح عينَيَّ عن آخرهما: (**هل تقصد أنني..**).

يُقاطعني في لهفة: (**بالطبع، أنت نسلُ حفظةِ العهد، وأبوك كان هو النسل المقطوع الذي يتحدث عنه الجميع**).

أحاول أن أستوعب حديثه جيدًا، (**إذن فمن هولاقيس؟**).

- هي تقصد؟.

- هي؟.

- نعم لاقيس ابنة إبليس، وأحد المقربين بشدة إليه.

- وهل معنى أن يدعوني ابن شمهورش هذا بابن لاقيس أنني حفيد الشيطان مباشرة ؟؟.

- ليس بالضرورة، والدتك على الأغلب من نسلِ لاقيس، وهذا هو نسبك في الجن، هم يدعون بعضهم بالنسب.

- وهل تعيش كل تلك الكائنات منذ آدم؟.

- يتميزُ الجن بطول أعمارهم بالنسبة إلينا بني البشر، بل إن الشيطان خالدٌ بمفهومنا، لن يموت إلا الموتةَ الآخرة قبل الحساب.

أصمت مفكرًا في كلامه، **(كيف عرفت كل تلك المعلومات؟).**

- من أبي بالطبع، طوال أربعِ سنوات أخذ يعلمني، راياتُ الظلام ارتفعت مجددًا، وتجمع أبي وأصدقاءٌ له، لهم نفس علمه لمواجهتهم، ولكن قتلوا، جميعهم هلكوا في مواجهات لا قِبل لهم بها، وظهرت كحوادث عادية، لقد استعلى بعلزبول مرةً أخرى.

- ولماذا لا يظهرُ الشيطان ليحكم الأرض إذا كان بكل هذه القوة؟.

- الشيطان يملك قوى كثيرة فعلًا، هوقوي، ولكنه جبان، زرع الله مهابة البشر في قلوب الجان، ولا ينتزعها إلا البشر إذا خافوا من الجان وطلبوا منهم الحماية، ساعتها يتسيد الجان.

- ولهذا يخاف بعلزبول هذا أن يظهر؟.

- من المؤكد أن الأمر ليس بهذه البساطة، هذا هو حدٌّ علمي، ولكن عدم ظهوره مجددًا، والأحداث الأخيرة التي حدثت، ترجح رواية السيف المزعوم وحفظة العهد.

- ولماذا الآن، ولماذا سن السابعة عشرة؟؟.

- لا أعلم حقًا، ولكن يُخيل إليّ أنه سن البلوغ عند قومك، سن استدعائك للانضمام إليهم، أوهكذا أظن.

- ولماذا أنا؟؟.

- أغلب الظن لأنك عشت حياتك بين البشر دون أن تدري شيئًا عن قدراتك، كل ما تحتاجه هوإزالة للقشرة الخارجية حتى تعرف معدنك حقًا، أغلب المُهجنين بين البشر والجن تتغلب عليهم طبيعتهم الجنية فيصبحون منهم، ليس أغلب بل الأصح كل المهجنين، وهم في درجةٍ أدنى بين قومهم.

- هل معنى كلامك أن ابن شمهورش كان يُريد أن يرجعني لقومهِ كي أكون خادمًا لهم؟؟.

- بالتأكيد لا، لن يتجسم مشقة البحث عنك سبعة عشرة عامًا ليجعلوكَ في مرتبةٍ أدنى، أنت فعلًا لا تتفهم الموقف جيدًا، لو صحت توقعاتي فأنت حفيدُ مهلائيل وإبليس، أنت الهجين الذي لم يتوقع أحدٌ حدوثه من قبل، أنت الوريث لهما، ألا تدركُ موقفك جيدًا؟؟.

- سأكذب عليكَ إن قُلت أدركه.

- إنك القدرُ الذي لن يستطيع أحدٌ الهروب منه يا صديقي.

يُظللنا الصمت مرةً بعد مرة، لا أدري ماذا يجب عليّ أن أفعل، فأسأل أحمد المشورة.

- لا أعرف فعلًا يا صديقي، الوضع مُعقد، ويجب أن تلتزم بوصية والدك.

- كيف أبحث عن جدٍ لي لم أرهُ قط، لا أعرف شكله، أين يسكن، ماذا يفعل ؟؟.

- فلتستخدم قدراتك.

- قدراتي ؟؟.

- نعم قدراتك.

- وأين قدراتي هذه؟؟.

- كيف هربت من قاتل والدك إذن؟.

- ماذا؟؟.

- ألم تسأل نفسك كيف وصلت إلى منزلي؟.

- لا أدري الكيفية، كل ما أعلمهُ أنني كنت خائفًا، مغمضًا عيني، وأفكر بك لتنقذني، فأنت آخر من أعرفه في هذه الحياة.

- ثم؟.

- ثم وجدت نفسي أمام باب منزلك.

- بالضبط.

- ما هوالذي بالضبط.

- قدراتك بالانتقال.

- قدراتي بماذا؟.

- قدراتك بالانتقال خلال الزمان والمكان، خلال الأبعاد، ما يطلَق عليها الانتقال الآني، أوالعفاريتي، فعفاريت الجن مشهورون به، ولذلك دومًا ما يخيل إلينا نحن البشر أنهم يظهرون من العدم.

أسرح في كلامه محاولًا تفنيده بدون أي فائدة، ذلك هو التفسير الوحيد فعلًا، ماذا يا ترى أملك أيضًا من قدرات؟

عندما أنظر إلى أحمد مجددًا، أراهُ في نفس الوضعِ الذي كـــــان يروضني به ليلةَ البارحة، أستغربُ ما يحدث، وأهم بالتجني عليه مرة أخرى، ثم أهدأ.

ينظر إليّ في شفقةٍ ثم يُوجه الكلام في جدية: (**هالتك تتغير، يزداد اللون الأسود المعتم عن الطيني، تستولي عليك طبيعتك الإبليسية، أحاول بذل جهدي لوقف هذا التحول ولكن قدراتي محدودة أيضًا، لا أضمن أن أستمر في السيطرة، من الواضح أن وفاة والدك هي ما أخلَّ بهذا التوازن، ويجب أن نبحث عن جدك بمنتهى السرعة**).

هدوءٌ تام يحيطُ بي فلا أنتبه جيدًا لكلامه، كل ما أريده أن أنام، وفعلًا غلبني النعاس.

■■■

عشتُ مع أحمد في منزله فترة تقارب الستة أشهر، لم نفعل فيها شيئًا غير الدراسة، أخذت أقرأ وأتعلم كل ما يتصل بموقفي هذا، وكثف أحمد مجهوداته لإيجاد جدي دون جدوى.

قدمني إلى بعضِ معارفه، لم يُصرح بموقفي ولم يكشف سري، جيش البشر لو تكون من هؤلاء ليتصدى لإبليس، فهذه هي النهاية، للبشر طبعا!

لم يلفت انتباهي منهم سوى اثنين، أحدهما رجلٌ قروي تغلب لهجة الريف عليه، طويل القامة، أصلع الرأس، ذو ملامح طيبة، يدعى بعبد الله مراد، والآخر ساحر يعمل في كل تلك الأشياء المتصلة بالعوالم الأخرى، ويشهد له الجميع بهذا، أشيب الشعر كثيفه، ذو جسدٍ مربع قوي على الرغم من كبر سنه، وملامحه توحي بالمهابة، اسمه إبراهيم يحيى.

عبد الله لم يرتَح لي ولم يُبادلني الكلام، بل نظر لي بتوجسٍ طوال جلستنا، ولم أقابله مرةً أخرى، أحسستُ فقط أنه عرف سري

عندما رآني، أما إبراهيم فتودد إليّ بصورةٍ تُنافي مهابته التي يفرضها على الجميع، ولكنه كان معسول اللسان يُجبرك على احترامه.

كان أحمد نعم الصديق، واستطاع فرض سيطرتهِ على تحولي ليحافظ قدر الإمكان على صديقه، كنت ألاحظ توتره من فترةٍ إلى أخرى وهو ينظر تجاهي، وهو لم يحملني أكبر من طاقتي، وقام بكل الأعباء.

حتى قتلته.

نعم أنا من قتلت صديقي أحمد، أحد أنقى من قابلتهم طوال حياتي، والذي حافظ على حياتي طوال ستة أشهر كاملة.

أشياء فظيعة حدثت، قمت من النوم مفزوعًا على صوتٍ غريب يصدر من حجرة أحمد، أنصت السمع لأتأكد، جريت بسرعة لأفتح الباب، لأرى أسوأ من كوابيسي حقيقة أمامي.

يقف ابن شمهورش كاشفًا عن ضحكته الخبيثة، حوله ثلاثةُ ملثمين، ويجلس أحمد على مقعدٍ مُعلق بالمقلوب بلا حبل في سقف الغرفة متحديًا كل قوانين الطبيعة التي أعرفها، رأسهُ يكاد ينفجر ويداه معلقتان بالهواء، ينزف منهما الدم.

منظرُ الدماء يثيرُ إحساسي، ينظر إليّ ابن شمهورش في تحدٍ، ثم يحييني بهزة رأس، أرد التحية في مودة، (**ستعود أخيرًا إلى قومك يا ابن لاقيس**)، يوجه الكلام تجاهي.

أبتسم إليه، يشعرني كلامه بالراحة، أنظر بتشفٍ إلى أحمد

المعلق، هذا هو مصيرُ كل من يتحدى جيشَ الجحيم، أقتربُ منهُ وأنظر في عينيه المذعورتين المحتقنتين، أوجه إليهِ ابتسامة مميتة.

يُخرِج ابن شمهورش خنجرًا رهيب الشكل ويقدمه إليّ، أوجهه لرقبة أحمد، يهمس بكلماتٍ لا أتبينها، فأقرب أذني من فمه لأسمعه يقول: (**لم يبقَ من هالتك الطينية سوى مقدار قبضةِ يد، حاول أن تُحافظ عليه علّك تجد به جدك، سامحني، لقد فعلتُ كل ما بوسعي لأساعدك، وداعًا يا صديقي**).

لأجز عنقه بلا رحمة!

■■■

الجزء الرابع

حكاية ابن لاقيس

مرت سنة كاملة منذ مقتل البشري أحمد، تعودت بالكاد على حياتي الجديدة بين قومي من الجن.

كان الانتقال من عالم البشر إلى عالم الجن صعبًا على نصف جنيّ مثلي لم يطأه قبلًا قط، للأسف الشديد علمت أن جزئي البشري سيبقى دومًا بداخلي، ولن أستطيع التخلص منه أبدًا مثل أقراني من المهجنين، حيث أنني عشت به فترة كبيرة داخل عالم البشر، فلم يطغ عليه جزء الجنيّ، ولماذا لم أصبح جنيًّا؟، لأن والدتي تُوفيت وهي تلدني، دم أبي النقي استطاع أن يتغلب عليها، واستطاع أيضًا إبقائي بين البشر إلى حين.

عرفت أيضًا أن هناك الكثيرين في مثل حالتي، هجناء من تزاوج الجن والبشر، هناك من يكون الأب جنيًا وهم أرقى منزلةً وقريبون جدًا في الصفات من الجن، وهناك من تكون أمهُ هي الجنية، وأولئك في مرتبة أدنى يعملون كخدم وحراس، وأنا كنت من هؤلاء.

ظننت أني سأكون مثلهم، وسأعامل بمهانة كما يُفعل بهم، ولكن خاب ظني سريعًا عندما رأيت مظاهر الاحتفاءِ بي، علمتُ بعد ذلك

أنني نسل عزازيل سيد الدياجير، وقد أوصى الجميع باحترامي، وتدريبي للتعود على حياتي الجديدة، وللانضمام إلى جيشه؛ جيش الجحيم؛ الذي سيستردُ ملك الأرض المفقود أخيرًا.

نفس الأرض تجمع بين الجن والإنس على سطحها، ما يفرقهم هو البعد أو تركيب الجزيئات؛ الأمر أشبه بالكائنات الدقيقة التي تعيش حولكم ولا ترونها إلا بوسائل خاصة، هناك أبعاد أخرى تتركب بها الجزيئات تركيبًا يصعب على العين البشرية أن تُبصره، ونفس الأمر بالنسبة لنا نحن الجن، نعيش حول البشر ونراهم رؤية العين.

أعرف الأمر معقد، ولن تفهمه إلا لوعشته مثلي، وهذا حظٌ حسن لك صدقني.

للجن القدرة على التجسد في عالم البشر، سواءً بشكلهم الحقيقي أو عن طريق التحول لأشكال البشر والحيوانات.

أما بالنسبة إليّ فطبيعتي المزدوجة هيأت لي قدراتٍ خارقة لم أتخيل يومًا امتلاكها.

يتألف الجن من قبائل وممالك، حياةٌ أشبه بعصور البشر الوسطى، لماذا لم يتطوروا وهم مطلعون على عالم البشر وكل ما

يحدث فيه ؟، لأنهم أقوياء، هم فعلًا ليسوا بحاجة إلى الطيران فمنهم الطيارون، وبعضهم ينتقل آنيًا، ليسوا بحاجة إلى البريد ووسائل الاتصال، فهناك التخاطب العقلي وهناك الكلام الأثيري مثلما فعل ابن شمهورش عندما قتل أبي، ليسوا بحاجة إلى الأدوية والكيماويات، فهم راضون بما تنتجه الأرض.

أين نستوطن؟ على حسب قدراتنا نسكن.

هناك الجن الترابي، بالإضافة إلى العمّار يوجد الغيلان والسعالي، وهؤلاء يستوطنون الصحاري والبيد.

الجن المائي قادرٌ على الغوص والبقاء تحت الماء لفترات طويلة تتعدى الساعات، وهم يسكنون الجزر النائية.

الجن الهوائي يسكنُ السحب وهم الطيارون، هم أقوى الجيوش بالإضافة إلى العفاريت والمردة.

أما الجن الناري فهم الغواصون الذين يسكنون باطن الأرض ومنهم المردة والأبالسة كما تطلقون عليهم أيها البشر.

كيف خُلقنا هكذا بين تراب وماء ونار وهواء؟ لا أحد يعرف يقينًا. قيل أن أبانا الأول "سوميا" تمتع بكل هذه القدرات، وعندما أنجب، أورث كل واحد من أبنائه صفة، فتكاثروا على مثل هيئاتهم.

العمّار هم أضعفنا، وقد استسمحوا مهلابيل قبلًا أن يظلوا مع الإنس في البيوت، ليس لهم حاكم، بل إنهم إلى البشر أقرب، رذيلة المعيشة طغت على نفوسهم فجعلتهم وضعاء، وهم حلقة الوصل بين العالمين.

والقرناء من يقترنون بالإنسانِ من لحظة مولده، يتبعون العمّار تصنيفيًا، وهم يعيشون عمرًا أطول بكثير من قرنائهم البشر.

الغيلان أقوياء وهم الأيسر في التشكل، ولكنهم أكثرنا غباءً، تنتشر قبائلهم في الصحراء.. لكل قبيلةٍ زعيمٌ بدون حاكم موحد، وتختلف أشكالهم بطبيعة ما يسكنون، وهم في قتالٍ دائم بين بعضهم البعض.

السعالي هم سحرتنا، أصحاب العلم والتعاويذ والتراكيب السحرية، هم أصدقاء سحرة البشر. كبيرهم هو السعلاة الأعظم: "سمراح بن عرفطة بن داثر"، وهومن جن العرب، إليه يرجع أمرهم وقرارهم.

العفاريت هم أقوى أنواعِ الجن على الإطلاق، على الرغم من صغر بنيتهم وقصر قامتهم التي تقترب من البشر، إلا أنهم يملكون القدرة على التنقل الآني، ونسميه على اسمهم بالتنقل العفاريتي،

وسرعة حركتهم في القتال تتيح لهم التغلب على جيوشٍ كاملة. رئيسهم الآن هو "عطيريد" من نسل "دمرياط" عفريت الملك سليمان.

الطيارون يملكهم جنيّ مسلمٌ يدعى ميمون السحابي، وهو لقب يطلق على كل من يملكهم بغض النظر عن اسمه الحقيقي.

المردةُ هم الأضخم على الإطلاق، ومنهم الجبابرة وهم مردة المردة، يملكهم "أحموش بن طرشوم بن سوميا"، أعمارهم طويلة مقارنة بالجن أصحاب الأعمار الطويلة من الأساس.

أما النورانيون أو الأبالسة بتسميتكم معشر البشر فهم نسل عزازيل، كان من الجن وتربى صغيرًا مع الملائكة حتى فاقهم في العبادة فأصبح له حظوة في السماء، ثم حدث ما حدث مع آدم وانتهى إلى ما نحن عليه الآن بالبحث عن الملك المفقود. يملك عزازيل كل قوى الجن مجتمعة، فهو يطير ويغوص وينتقل آنيا وكل شيء، هو خليفة سوميا كما يحب أن يطلق على نفسه، أما أبناؤه فكل منهم يملك منه صفة كما أبناء سوميا أيضًا.

هذا غيضٌ من فيض فيما يتعلقُ بنا نحن الجان، ومن الأسلم لك ألا تعرف أكثر.

إذن من يملك الجان الآن؟ عزازيل بالطبع، حدث الأمر منذ ثمانية عشر عامًا بالكمال والتمام، دعا عزازيل الجن لنبذ الفرقة والتوحد مرة أخرى تحت قيادته مثلما حدث في الملحمة الأولى، ولم يكن هناك ممن حضر معه إلا قليلٌ متفرقون كل في قومه، هؤلاء هم من تحمسوا ثانية لإعادة الملك المفقود؛ مملكة الجان على الأرض قبل خلق آدم، أما الغالبية فقد رضيت بحياتها التي ألفتها دومًا.

كان أكبر المعترضين هو "فجحاح" من نسل دمرياط ملك العفاريت آنذاك، فدعاه عزازيل لمبارزةٍ مباشرة انتهت بجعل عطيريد ملكهم، لم تخمد الاحتجاجات كما كان متوقعًا، فحدثت منذ لحظتها الكثير من الجولات والحروب والاغتيالات؛ اغتيل شمهورش القاضي فانضم آخر نسله إلى جيش الجحيم وهومن أتى بي. كادت الجنُّ تدين بأكملها، إلا قليلًا، فالطيارون على الحياد كديدنهم، والسعالى لا يريدون التحيز، كبيرهم سمراح يوجد بالربع الخالي من جزيرة العرب، ويحتمي من عزازيل بالأماكن المحرمة، أما العوام فيعتقدون أنه إذا آل الملك لعزازيل فسيفنيهم ويُبقي نسله فقط؛ ألم يتشبه دائمًا بسوميا، فلماذا لا يصبح مثله ولا جن قبله.

بعض مناوشاتٍ لن تقلل من قوة عزازيل، وبالأخص بعد تحقق النبوءة وكسر السيف.

بعد مرور سنتين على رجوعي إلى قومي تغيرت الكثير من الأشياء.

أولها أنني بعد مجهودٍ كثيف أصبحت أتعايش بطبيعتي الجنية.

وثانيها أنني صقلتُ مهاراتي؛ فقدراتي على التنقل الآني والتنقل بين العالمين ورؤية الجان وأنا في عالم البشر وعدم وجود القرين لدي، جعلتني في مرتبةٍ مميزة.

وثالثها أن الأمر دان فعلًا لعزازيل باستثناء بقايا لا صوت لهم ولا ثقل.

وانضممتُ أخيرًا إلى جيش الجحيم.

كان قائد رهطي هو "إلياش" من نسل "ساروش" بن عزازيل، يليه ابن شمهورش واسمه الحقيقي "نوموهوجني أفريقي"، وكنت أنا ابن لاقيس، بالإضافة إلى ثلاثة هجناء آخرين، اثنان منهم أبوهما جني، وخادم أمه جنية.

أما الجنّاس وهم أبناء الجن من أنسية فيدعون: "لكين بن عكب" من العرب و"صرفريار" من نسل "إلكيچووب" من أوروبا.

والخادم "ساماسان بن برقيار" من آسيا، يسمى من مثله بالـ "مُجنجن" أي من أصله إنسي وجعل جنيّ بفضل أمه.

مجموعة من كل أنحاء الأرض اجتمعت لتعيدها إلى حوزة عزازيل المعظّم.

قد يسأل أحدهم وكيف تتواصلون؟ نعم كلٌ له لسانه الخاص وكلٌ يتكلم بلغة قومه، ولكن هناك اللسان العزازيلي فكلنا نتكلم بلغة ملكنا المعظّم، وهناك التخاطر العقلي فننقل أفكارنا التي لا تحتاج إلى حروف لتعبر عنها.

مهامنا تتحدد تبعًا للصراعات، فمنها أن نقتل الجن المتمردين، أونقبض على المتهمين بإثارة الشغب والخلافات، لم أنخرط جديًا في المهام، كانوا دائمًا يحمونني ولا يعرضونني للأخطار، ابن شمهورش وابن ساروش بالأخص، أما ابن عكب وابن إلكيچووب فأحسست دومًا بشعورهم بالغيرة مني، ابن برقيار كان يعاملني باحترامٍ مُبالغ فيه، عرفت بعد ذلك أنه كان يحب أن يكون مجنجنٌ مثله في موقع أفضل معطيًا له الأمل في غدٍ أفضل.

شغلني دائمًا لماذا الإصرار على تدريبي بقوة طالما لا أشارك باستمرار، وكان رد ابن شمهورش المعتاد أن عزازيل يدخرني لأسمى

مهمة وأنني سوف أعرفها في وقتها، لم يكن هناك جهد لم يبذله ابن شمهورش في إطار تدريبي وتطوير مهاراتي، وفعلًا أتت نتائجه مبهرة له قبل أن تكون لي، وصرح ابن ساروش مرارًا بأنه يفخر أن يحتويني رهطه، وأننا - الرهط - سنصبح في مقدمة الجيش، ويومًا ما سنصلُ إلى صفوة قوات عزازيل، فالرهط يحتوي على اثنين من أحفاده مباشرة.

رهطنا تميز عن باقي القوات بقدرته على القيام بالمهام في عالم البشر، احتواؤه على أربعةٍ من المهجنين، واثنين يتقنان فن التحول سهل عمله كثيرًا، وكانت نتائج أعمالنا مبهرة.

إذن ماذا نفعل في عالم البشر؟ سؤالٌ جيد، مثلما نفعل في عالم الجان، علم كثيرٌ من البشر بما يعده عزازيل، سمعوا عن النبوءةِ والسيف والجيش، منهم من لم يصدق، ومنهم من أعدَّ عُدته للتصدي وجمع أصدقاءه ومعارفه للمواجهة مثل والد أحمد النافق هو وابنه، ومنهم من قاتل الجن وقتل من يعيشون منهم وسط البشر - كجواسيس لقومنا ويدعون بالمغربين - وهؤلاء كنا نقتلهم شر قتلة، ومنهم من أخذ يبحثُ عن السيف إن كان موجودًا ليحميه، ومنهم من انضم إلينا!

أما نحن فكنا نقتل من يقاتلنا، ونختطف من نحتاجه، وننقذ المغربين من قومنا، ونساعد أعواننا في أعمالهم.

حياتي المزدوجة بين العالمين كانت أكثر إثارة مما تخيلتُه.

دارت الأيامُ تلو الأيام في وتيرتها المعتادة، بين تدريبٍ وقتال وحشد للملحمة الكبرى، وحياتنا الجنية معتادة من نوم وشرب وأكل وترفيه، كل ما يفعله البشر نفعله نحن أيضًا بصورة شبيهة، فقط بصمة معيشتنا تغير فيها قليلًا.

اقتربتُ كثيرًا من ابن عكب وابن إلكيچووب، صديقان حقيقيان وقريبان من موقفك أيضًا، حكيا لي عن حياتهما المهينة وسط الجن قبل انضمامهما لجيشِ الجحيم، معاملتهما كطبقة دنيا لوجود أم بشرية، وأن صفاتهما البشرية القوية مكنتهما من الانضمام للجيش بعد طلب عزازيل تكوين قواتٍ من الجنّاس لسهولة انتقالهم بين العالمين.

ابن برقيار كان وفيًا لي بحق، اعتبرني أمل المجنجنة لنيل خلاصهم وحقوقهم في عالم الجن، أفصح لي ذات مرة بذلك، فوعدته - إن لم أقتل في ملحمة الخلاص - أنني سأفعل كل ما أستطيعه لانتزاع حقوقهم، لولا نسبي المباشر لعزازيل لكنتُ مثله

الآن، لا زالت قبضة اليد من بشريتي الموجودة بداخلي والتي رآها أحمد في هالتي تجعل فيَّ عطفًا لا أستطيعُ مداراته.

ابن ساروش وابن شمهورش لم يُعجبا ببعض تصرفات نتجت عن ضعفي البشري هذا، نهوني فقط، في حين أنهم عذبوا أصدقائي بنفس التصرفات، ولم يعجبا أيضًا بتقاربنا، حاولا كثيرًا أن يفرقا بين ثلاثتنا ولكن بلا فائدة، أواصر الصداقة، ونبذ قومنا لهما جمعتنا كعائلة، وتبعنا الخادم بلا تردد.

في إحدى مهامنا في عالم البشر، قدم لي ابن شمهورش خنجره لأقتل الشخص الذي جئنا لأجله، فعلتها كثيرًا قبلًا، وفعلتها مع من كان صديقي الوحيد في يومٍ ما، لا أعرف ماذا حدث، هل نظرة الرعب في عينيه، هل توسل زوجته التي كانت ترانا، هل تغلب هالتي البشرية من كثرة الرجوع لعالم البشر، لأول مرةٍ منذ أربعِ سنوات - وهي الفترة التي مرت منذ قتلت أحمد- أجبن عن فعلها مرة أخرى. يتبادل قائداي النظرات، فيسترجع ابن شمهورش خنجره ليتم المهمة.

حُبست بعدها سنة كاملة في عالم الجان حتى أتخلص مما فعلته في تلك الليلة.

قابلتُ إبراهيم يحيى، نعم ذلك البشري الذي ظننت يومًا أن له هيبة لا تخفى عن العيون، قابلتهُ في عالمنا، كان يملك العلم والتصريح من قائدَينا اللذين مكناه من الولوج إلينا، عرفتُ بعد ذلك أنه وشى بصديقٍ له كان يريد أن يؤسس جيشًا لمجابهة جيش الجحيم، وأن صديقه هرب ولم نستطع قتله.

إبراهيم وعدهُ "زلنبور" بن عزازيل بقيادة الفرق البشرية في الجيش، وأنه سيصبح حاكم البشر في حالِ دانت الأرض لعزازيل.

كان ذليلًا، يقف محنيةً قامتهُ وهو يكلم ابن ساروش، عرفته على الفور، معسولُ كلامهِ لا ينطلي علينا نحن معشر الجان، يبلغ تقريره عن الأشخاص ويستسمح الرهط في القيام ببعض المهام، لم يعرفني، أوبالأصح لم يرفع عينه من الأرض حتى يتعرفني.

بدأت أراهُ كثيرًا مؤخرًا، عدم عثورنا على صديقه المطلوبِ قتلهُ كان يقضُّ مضاجعنا جميعًا، وأخيرًا تلاقت عيوننا.

لم أدرِ يومها هل عرفني أم لا، ولم تتلاقَ أعيننا مرة أخرى إلا

عندما جاء مرة ولم يكن أحدٌ موجود غيري، على الرغم من انتهاء عقوبة الحبس بسنة دون الولوج لعالم البشر، إلا إنهم ظلـــوا على تركهم لي والقيام بمهام الرهط بعيدًا عني.

حتى قامته وقدم التحيات فرددتها، وذهب ليجلس في أقصى قاعة الرهط منتظرًا قدوم ابن ساروش.

تشاغلتُ عنه بسن أسلحتي وتسميمها، كنت أملك سيفًا وخنجرًا آيتين في الجمال، أحسستُ بدوارٍ يكتنفُ عقلي، مشاهد متتالية تمر في عقلي عن حربٍ قديمة أسطورية، تزاوج بين إنسي وجنية، رجل أشيب الشعر غاضب، نظرة الأطفال لي، أحمد، سارة، وموت أبي.

ماذا يفعل هذا الوغد؟ تنبهت إلى ما يحدث لي، فقمت مفزوعًا لأراه يوجه لي يده كما فعل أحمد قبلًا، يتلو عباراتٍ غير مفهومة بفمه في صوت خفيض، يجتاح ذكرياتي التي لا أعرف بوجودها أصلًا، ويتحكم في عقلي بلا مقاومة.

أنقذني دخول ابن شمهورش الذي استل خنجره وقطع به يد إبراهيم، صوت ولولته وصل إلى عالم البشر حسبما أعتقد، أمسك به من حنجرته ورفعه عن الأرض مسافة نصف متر، ألصق ظهره

بالحائط الحجري، ثم قرب فمه من أذنه وهمس بفحيحٍ صاخب: (**ماذا تفعل أيها البشري الحقير؟ أتُعَزّم وأنت في أرض الجان؟ أجننت؟**).

لم يكن الهواء يصل إلى إبراهيم وبدأ في الاختناق، احمرار وجهه، وحركة يديه ورجليه العشوائية للخلاص لا طائل منها.

(**هذا المهجن خطير، يجب أن تتخلصوا منه**)، يقولها وهو يشهق بضعف.

(**اتركه يا نومو**)، يأمره ابن ساروش بقوة.

ينظر إليه ابن شمهورش بغضب، يرجع نظره لإبراهيم الذي كاد أن يفقد وعيه من اختناقه وفقده للدم من يده المقطوعة، فيفلته ليسقط أرضًا ويسترجع كثيرًا من الأنفاس.

(**لماذا فعلت به هذا؟ ألا تعرفُ أنه حامل لأمانِ زلنبور**)، يوجه ابن ساروش الكلام لابن شمهورش في صرامة.

في حركة مفاجئةٍ يرفع ابن شمهورش خنجره نحو رقبة ابن ساروش ويقول له في غضب: (**تبًا لك ولزلنبور، هذا الوغد يعزّم على أحدنا وفي عالمنا، يجب أن يقتل**).

(**تعْزيم وهنا**)، يصرخ ابن ساروش في دهشة، يتجاهل الخنجر الموجه إليه وكلام ابن شمهورش الغاضب، ويرفع إبراهيم ليجعله واقفًا على قدمه.

(**ما الذي أتى بك؟**)، يسأله ابن ساروش.

(**علمت مكان عبد الله مراد، فأتيت لأخبركم**)، يقولها إبراهيم في ألمٍ ولهفة للنجاة.

(**وأين هو؟**)، يكمل ابن ساروش استجوابه.

(**في الحي القديم من العاصمة الأثرية، ذهبت بنفسي ورأيته، كل عماركم لم يستطيعوا إيجاده وأنا وجدته، فيكون هذا جزائي!**)، تنزل دموعه وهويتكلم.

(**هل عزّمت؟**)، يسأله ابن ساروش في صرامة.

(**سيدي، خطأ ولن يتكرر صدقني**)، يجيبه إبراهيم في تذلل لم أره قبلًا.

(**أجب، هل عزّمت ؟**).

يشير إبراهيم برأسه أن نعم.

(**هولكَ يا ابن شمهورش**)، فتصدرُ منه صرخة لن أنساها أبدًا.

علمت بعد ذلك أن التعزّيم هو سيطرة الإنس على الجن بتمائم وتعاويذ يلقيها الإنسي، لا أعرف من علمهم هذا أو من أين أتت المعرفة به، ولكن التعزّيم هو قمة المهانة للجني، وهو مُحرمٌ في عالمنا تحريمًا قاطعًا.

سألت ابن شمهورش ونحن جالسون حول النار نتسامر أمام مقر رهطنا: (**هل عبد الله الذي تبحثون عنه هذا على قدرٍ من الأهمية؟**).

رد ساهمًا: (**لا، كل المعضلة أننا لم نتمكن منه، هرب بطريقةٍ خفية، عن عمّارنا ومغربينا، لم نجده رغم البحث الجاد، مما زاد من أهمية إيجاده**).

تتوارد إلى ذهني صورة عبد الله هذا بملامحه الطيبة، أشعر بحنينٍ بعيد إلى أحمد ورفقته، ينتزعني منهُ تكملة ابن شمهورش لكلامه.

(**المشكلة الأكبر أننا لم نستطع ولوج المنطقة التي يسكن فيها، أنا وإلياش، شيءٌ ما منعنا، قوة أكبر منّا، ظنناهم الملائكة، ولكن تأكدنا أنه شيء آخر**)، يصمتُ مفكرًا على غير عادته، (**حاول لكين**

وصرفريار ولم يفلحا أيضًا، دخلوا وأحسوا باختناق فخرجوا مسرعين، الوحيد الذي استطاع المرور هو ساماسان، ولم يجد الإنسي بالمنطقة).

لماذا ساماسان بالذات؟

(حاولنا التفكير فلم يكن هناك حل غير أن المهجنين هم المسموح لهم فقط بالعبور، المنطقة تحيطها حماية لم نستطع اختراقها، هناك شيء مريبٌ يحدث بداخلها، والأمر رُفع لعزازيل ليقرر ما يرى)، يختم ابن شمهورش كلامه.

بعدها بأيام قليلة صدر أمر عزازيل بتوجهي وحدي لقتل عبد الله!!

القرار صدمنا جميعًا، لم ندرِ ما يرمي إليه ملكنا كالعادة، احتباسي عن عالم البشر مدةً تقترب من السنتين ليس بهين، وذهابي وحدي أيضًا شيء غريب، كلماتُ الهالك إبراهيم ما زالت تدوي في أذني بأنني خطير ويجب التخلص مني، هل يا ترى ما زالت تتردد في أذن ابن شمهورش كذلك؟ وهل هذا مخطط من عزازيل للتخلص مني بعد كل تلك التدريبات؟ وماذا عن المهمة الأسمى التي

يدخرني من أجلها؟ عصفت برأسي -ومن المؤكد برؤسهم أيضًا- الأفكار.

وذهبتُ لأقتله.

انتقلنا جميعنا إلى عالم الإنس، ووصلنا إلى الحي القديم بعربة بشرية يقودها ابن شمهورش، كنا قُبيل منتصف النهار.

نزلت وحدي وأنا أشعر برهبةٍ غير معتادة، منذ خمس سنوات تقريبًا كنت واحدًا من هؤلاء، الآن أنزل لأقتلهم!

دخلتُ الحي وأنا أركز نظري يمينًا ويسارًا، مسلحًا بخنجري والأوصاف التي أتذكرها عن ملامحه، والأفكار التي انتشلها ابن شمهورش من عقل النافق إبراهيم قبل قتله.

هناك فعلًا قوةٌ كاسحةٌ في هذه المنطقة، قوة تشعرك بالسلام والطمأنينة، تنتزع منك غلك وحقدك فترجعك إلى حالة خلقك الأولى، فلا تملك القرار للفعل.

استهدفتُ منزله مباشرة؛ ذلك الذي بحث فيه ساماسان فلم يجده، طرقت الباب ففتح لي، وعرفني، كاد أن يغلق الباب بسرعة، فوضعت قدمي وفتحته بعنفٍ لأدخل الشقة مغلقًا الباب ورائي.

يجري بسرعة ليتناول ترياقًا ما في زجاجة صغيرة، ثم يتحرك من مكانه ببطءٍ للجهة الأخرى من الشقة، أتتبعه بنظري في صمت.

(**كيف تراني؟ قومك لا يستطيعون رؤيتي، ثم أين قرينك؟ من أنت أيها الـ..؟**)، يتكلم بتعلثمٍ يُفسر دهشته الشديدة، ملامح الخوف تكسو وجهه، وقطرات العرق تنبت على جبهته بغزارة.

لا أتكلم، أنا هنا في مهمة محددة فلأنجزها بسرعة.

أستل الخنجر من جرابه، وأتقدم في هدوءٍ ناحيته.

لا يتحرك البتة، ينتظر مصيره وكأنه محكوم عليه بإعدامٍ واجب النفاذ.

(**فلتنتهِ سريعًا**)، يشد قامتهُ وينظر لي في اعتزاز، ما باله؟

(**أعرفُ أنني مقتولٌ لا محالة، وأعتقد بأني عرفتك وعرفت سرك، أنت قاتل صاحبك أليس كذلك؟**)، يحاول التأثير على أفكاري، وقد نجح.

نظراتي الزائغة زادت من شجاعته فأضاف: (**مهجن كما اعتقدت أول مرة رأيتك بها، أكسيري يعملُ ويخفيني عن عيونكم ولكنك مُختلف، ولذلك رأيتني**)، هذا يُفسر لماذا لم نجده طوال تلك الفترة.

(أعرف بأنك قاتلي، أراها في عينيك، ولكن دعني أنصحك نصيحة أخيرة، أنت تشبهه، عندما تخرجُ من هنا لا ترحل سريعًا، اعرج عليه في آخر شارعي هذا، ستجده جالسًا في محل عطارته منتظرًا)، عمَّ يتكلم هذا الوغد؟

(أنت تشبهه تمامًا فعلًا!)، كانت هذه آخر كلماته قبل أن أجز عنقه كالمعتاد.

يتردد صوته في عقلي وأنا أخرج مسرعًا -وخائفًا!- من منزله، أسارع الخطى لأصل إلى رهطي، فتستوقفني رائحة دكان العطارة المنشود، أتردد في الدخول، تتنازعني مشاعرُ شتى، فأنهي تخبطي وأدخل.

أراهُ يجلس في وقارٍ خلف مكتب بسيط في آخر المحل، المحل كبير يعمل به كثير من العمال، الروائح المتداخلة تعطيكَ شعورًا برائحة الجنة، تودُّ أن تغلق عينيك وتبقى هنا إلى الأبد.

أتقدم حثيثًا إلى حيث يجلس، شعره الأبيض في لون الثلج ينزل على جانبي رأسه، وملامحُ وجهه التي تشبهني وتشبه أبي جدًا، والعلامات التي حفرها الزمن كتأكيد على ما فعله به تزين وجهه، هيبة لا يستطيع مداراتها تطل منه.

ينظر لي بتمعن، يفتر ثغره عن ابتسامة بسيطة، ويوجه إليّ كلامه: (**انتظرتك طويلًا جدًا، لماذا تأخرت كل هذا الوقت ؟**).

نظرة الدهشة على وجهي، الابتسامة الأبوية على وجهه، رائحة التوابل التي لا تُقاوم، صخب البيع والشراء، شمس الظهيرة، وقلب عبد الله الذي بجيبي تأكيدًا لقتله، كل هذا لم يخفف من وقع كلمته الأخيرة.

(**مرحبًا بحفيدي**).

■■■

الجزء الخامس

حكاية جانبية أخرى

نجلس صامتَين محدقين في بعضنا البعض، يسكن جدي في الطابق العلوي لمحلِ العطارة، بيتٌ عتيقٌ كباقي الحي، عبق تاريخي يسطع من جميع جوانبه، تُضاف إليه روائح العطارة المختلطة، فتتلبسك سكينة لا تستطيع أن تنكرها.

غرفة الجلوس فسيحة، مزينة بأعمال خشبية مما يطلق عليه "أرابيسك"، وكذا المقاعد والمناضد مزخرفة بتلك الأعمال، ومشربية قديمة الطراز تفصلنا عن الشارع وازدحامه.

طالت فترة التطلع ولا بد أن ينهيها أحدنا.

(**أنت تشبهني أكثر مما تشبه أباك**)، يقولها جدي محاولًا إزاحة التوتر الذي يملأ المكان.

أبتسمُ وأجيب: (**نعم، هذا ما لاحظته أيضًا**).

- هل حدثك أبوك عني؟.

- لا، عند مقتلهِ قال أن لي جد فلأبحث عنه.

تهزه رعشة واضحة، (**مقتله!!**).

- نعم قتله جنيّ يدعى ابن شمهورش.

تطل من عينيه نظرةٌ مليئة بالانكسار، ينظر لأسفل مغالبًا دمعةً فرت منه، ثم يعتدل وقد عاد إليه ثباته.

- **وهل بحثت عني؟.**

- **لا، لقد جئت إليك بمحض المصادفة.**

- **لا يوجد ما يدعى بالمصادفة، بعد كل تلك الأعوام التي قضيتها، أقسم لك بأنه لا وجود لها، نحن قطع أحجية صغيرة، تروس في آلةٍ عملاقة، كل حركةٍ فيها تؤثر في مثيلاتها، لا أعرف من دلك عليّ، ولكنني متأكد أن طريقك مهما بَعُد كان سيُفضي إلى دكان عطارتي في النهاية.**

لا أجيبه، أظل صامتًا محدقًا بقوة إليه.

- **ولماذا لم تبحث عني؟**، يباغتني بسؤاله.

- **هل تعرف من أنا حقا؟.**

- **بالطبع، ولماذا تظن أن والدك تركني؟.**

- **لا أعرف، لم يحدثني، ولم أعرف أحدًا ليخبرني.**

- **أين تعيش؟.**

- **هذا ليس بشأنك**، أقولها في صرامة.

أرى في عينيه نفس النظرة التي رأيتها في عين صديقي أحمد يوم ذهبت إليه هربًا من ابن شمهورش.

يقوم فجأةً ويدخل إلى غرفة مغلقة، ويغلق بابها خلفه، يخرج بعدها بدقيقتين حاملًا لفافة سوداء طويلة ممسكًا بها في قوة، يجلس مرة أخرى وهولا يعبأ بشراستي.

يظل دقيقة أخرى أو أكثر صامتًا، ثم يعيد: (**سألتك أين تعيش، فلتجب!**).

شيء في صوته أخافني، أبتلعُ ريقي في صعوبة، أقاوم إجابته دون جدوى.

- **مع قوم أمي.**

- **من الجن!!** ، لم يستطع إخفاء الدهشةِ من صوته.

- **بلى.**

- **منذ متى؟.**

- **منذ مقتل أبي.**

- كم عامًا تقريبًا؟.

- أربعة أوخمسة لا أتذكر تحديدًا.

يسكت هنيهة ثم يضيف: (**هذا كثير**).

لا أدري بماذا أجيبه، شيءٌ تغير بداخلي منذ دخلت هذا الحي، وتغير أكثر بعدما أحضر هذه اللفافة.

- وما الذي أتى بك إلى هنا؟.

- كنتُ أقتل أحدهم، أجيبه بلا مبالاة.

- إذن فحفيدي قاتل.

- إنني بطل.

- بطل بالقتل؟.

- بلى، أنا بطلٌ بين قومي.

- هنا قومك أيها الغبي!.

- بل قومي هناك.

هذه الدائرة المغلقة، نسبية بني آدم الغبية، البطلُ في قومٍ هو أيقونة الشر لدى أعدائهم، والعكس أيضًا.

كل منهم يحتكر الحق ويحتقر من يدافع عما يؤمن به طالما كان عكس ما يعتقده هو.

"اذا تأخرت يا ابن لاقيس".

تدوي العبارةُ في ذهني، صوت ابن ساروش يتكلم.

أحاول التركيز لأكلمهم فلا أستطيع، يحاصرني الجد بنظراته الموجعة.

- هل يخاطبونك؟.

كيف عرف؟! نظرة الدهشة على وجهي تفضحني.

- لن يقدروا عليك وأنت هنا معي.

- لماذا؟؟.

- إذن فلست تعرف؟.

- أعرف ماذا ؟؟.

- أنت لست هنا لتقتلني ؟.

(**لا!!**) ، أصرخ بها وكأنني أنفي عن نفسي تهمة مثبتة.

(**حمدًا لله**)، يقولها وقد ارتسمت على ملامحه علامات الارتياح.

"***أين أنت أيها الوغد***"

يصرخُ صوت ابن شمهورش في عقلي.

أتألم، وتزيغ نظرتي قليلًا.

(**هم لم ينالوا منك بعد، بقى فيك جزء منّا، حاول أن تتشبث به قليلًا حتى يرحلوا**).

(**لن يرحلوا، بل سيأتون ليقتلوك**)، أقولها وأنا مشفقٌ عليه، خائف من مثل مصير أبي له.

(**لا تخف، لن يأتوا وإذا أتوا لن يستطيعوا فعل شيء**)، يتكلم بثقة مفرطة.

"فلتأتِ حالًا يا ابن لاقيس"

يصرخُ ابن ساروش وابن شمهورش في وعيي، تكاد رأسي تتمزق، ثم تتمثل صورة في عقلي لملكٍ غاضب على عرش فوق الماء، حوله أفاعٍ ضخمة تتلوى، يشير إليّ بسبابته غاضبًا.

أقومُ من مكاني في سرعةٍ قاصدًا جدي، (**اثبت مكانك**)، يصرخ بها بقوة وهو يشير باللفافة السوداء إلى صدري، أقف، قوتان تتنازعانني بينهما ولا أدري ماذا أفعل، وجعٌ في رأسي يدفعني للتقدم، وقوةٌ في صدري تمنعني منه، أصرخُ، ثم أقع فاقدًا للوعي.

■■■

(يبدوأن الصراع داخلك شديدٌ، ويبدو أيضًا أن جزأكَ البشري لا يزال متمسكًا بي، على أية حال، حمدًا لله على سلامتك يا ولدي)، كانت هذه مقالة جدي بعدما أفقت من الغيبوبة، كالعادة حدثت لي مثلما وقعت مع كل حدث جسيم في حياتي، وكالعادة لا أدري كم لبثتُ فيها.

- **من أنت حقًا؟، وكيف لا تخاف مني أو من قومي؟.**

- **ستعرف كل شيء في حينه، يبدوأن محمدًا لم يخبرك بشيءٍ البتة.**

- **لا، كان نعم الأب حقًا، حتى قاتلهُ لم آخذ الثأر منه.**

- **وهل تعرف قاتله؟.**

- **هو قائدي في رهط الجن.**

يسرحُ قليلًا بنظره تجاه اللاشيء، ثم يستدير لي مرة أخرى ويقول: **(هل تريد أن تتحدث إليّ عن حياتك السابقة؟)**.

بلى أريد، أريد أن أزيح عن كاهلي كل أثقاله، أريد أن أتحرر من السلاسل التي تربطني في اتجاهين متضادين، أريد أن أحلق بعيـــــدًا عن القومين لأبدًا حياتي من جديد.

- لا.

- لماذا؟.

- ليس الآن، أنا لا أعرفك إلا قبل ساعاتٍ محدودة، لم تنل ثقتي بعد، وأيضًا لم أحدد أي موقف أو أي قومٍ سأختار.

- البشر بالطبع، هذا ليس مجال للمناقشة.

- ولمَ؟.

- لاعتباراتٍ كثيرة، أقربها أنه لو كان لإبليس سيطرةٌ عليك، لما استطعتُ إيقافك.

- قد لا تستطيعه الآن، وقد تستطيع ولكنك لن تقدر على قومي.

- ألم تدرك الحقيقة بعد؟.

- أية حقيقة؟.

- قومك لا يستطيعون الاقتراب مني، بل من الحي بأكمله.

- أنا استطعت.

- إذن فليسوا بقومك.

- وآخرون استطاعوا.

- أنت تكذب.

- لا، استطاعوا ولكن شيئًا أوقفهم.

- هل هم من المهجنين أمثالك؟؟.

أصمتُ قليلًا وأنا أنظر إليه بدهشة.

- أنت تعرف الكثير حقًا.

- هذا هو عملي الرئيسي في الحياة.

- ما هو؟؟.

- المعرفة.

- من أنت حقا يا جدي؟.

(لأول مرةٍ تتلفظ بجدي منذ رأيتك)، يقولها بتأثرٍ وابتسامةٌ ترتسم على شفتيه.

أبتسمُ أنا أيضًا، ابن شمهورش وفر لي التدريب والحماية، لكنه لم يعوض الحنان الذي كان أبي وأحمد يغرقانني به، مشاعر الأبوة التي يغدقها عليّ الآن جدي.

- من أنت يا جدي؟.

- بل قل لي أولًا من أنت ؟.

- أنا حفيدك.

- نعم بالطبع، لكني أسألك عمَّا تفعله.

- أنا جندي في رهطٍ مكون من ستة جنود، نقوم بمهامٍ لحساب جيش الجحيم التابع لعزازيل.

- اسمه إبليس، الشيطان، بعلزبول، أوالرچيم .. عزازيل هذا هناك في عالمهم.

- هل تفرق لديك المسميات؟.

- بالطبع، أولى خطوات المعرفة هي التسمية الحقيقية للأشياء.

- مممم، وبعد ذلك؟؟.

- لكي نعرف ماذا نفعل جيدًا.

أتأففُ في عدم صبر: (**إذن أنا جندي في رهطٍ مكون من ستةٍ من الجان، نتبع بعلزبول في جيش الظلام**).

(**هل تكون الجيش حقًا؟**)، يباغتني سؤاله.

- **نعم.**

- **لقد حسب إبليس حساباته جيدًا هذه المرة.**

- **وهل كانت هناك مرات سابقة.**

- **كثيرة، لا تعد ولا تحصى يا ولدي.**

- **وماذا يحدث كل مرة ؟.**

- **يُهزم بفضل الله.**

يصمت كلانا.

(**هل لا زلت لا تريد أن تحدثني عن حياتك**)، يقولها بلهجة يغلب عليها الرجاء، فأحدثه، وعلى مدى عدة ساعات أروي له أغلب ما مر بي.

- **لقد حكيت لك من أنا، فلتخبرني من أنت؟.**

يقوم جدي واقفًا في مهابة: (**أنا مصطفى بن الحافظ، آخرُ حفظة العهد، صاحب النسل المقطوع، وأمينُ سيفِ مهلاييل**).

إذن فقد كان أحمد محقًا تمامًا.

■■■

مكثتُ مع جدي ما يقرب من عام، تعلمت كثيرًا وحكى لي الكثير، عملت معه في دكان العطارة، ولكننا لازمنا الحي فلم نغادره، أنا متأكدٌ أنه لو ظل صديقي حيًا لرأى هالتي طينية كلها الآن.

رغم كلام جدي الكثير، إلا أنه كانت هناك تساؤلاتٌ لم تجد لها أجوبة لديّ، أولها: (**كيف تحكي لي عن أطوالٍ رهيبة لأول الخلق ولصاحب نسلنا مهلاييل، ثم عندما رأيتهُ معك كان طوله عاديًا**)، كانت اللفافةُ السوداء هي السيف، لم يخرجه ساعتها حتى لا يؤذيني، ولم يجعلني أراهُ مرة أخرى.

(**السيفُ له خاصية فريدة بالتناسب حجمًا مع من يحمله طالما كان يحمل دم مهلاييل**).

إجابته كانت مقنعة إلى حدٍ ما، لوكان مهلاييل طوله ثلاثون مترًا كما يحكي، لأصبح السيف بطولهِ الآن، خلة أسنان بالنسبة إليه.

- **إذن كيف تعرف الكثير عن الجن.**

- **هم أعدائي، فكيف لا أعرف عنهم كل شيء، من علم عدوه جيدًا؛ سلم منه.**

- ولماذا عبت على أبي المعرفة ؟.

- أبوك تعجل، ومن تعجل أفسد ما كان مُقدرًا، وهذا ما حدث فعلًا، تعرف إلى "بلبيطاح" بنت لاقيس وتزوجها، وهرب من منزلي ليلحق بها، وعندما عاد ليقول لي أن آخر حفظة العهد أصبح نصف جنيّ، جُن جنوني!.

- لماذا؟! أتستنكرني !.

- كيف تُصبح حافظًا لسيف من قومٍ تنتسب إليهم!!.

لا أدري جوابًا.

(تزوج أبوك تحت إلحاح مني مرة أخرى)، كانت هذه مفاجأة حقًا.

(وأنجب)، يتسلى برؤية عيني تتسعان.

- ولكن للأسف بنت، وأصبحتُ أنا آخر النسل.

- هل لي أخت؟؟.

- نعم.

- وأين هي؟؟.

- لا أدري.

- لا تدري!!.

- نعم لا أدري، لم أرها قط، ولم أسمع لتوسلاتِ أمها، كانت مهمتي أعظم، معنى انقطاع النسل أن يظهر الشيطانُ مرة أخرى ليتسيد، معناه هو فناء الجنس البشري.

- أراك تهتمُ بالجنس البشري بأكمله، وأنت لم تهتم بدايةً بنسلك!!.

- الغايةُ يجب أن تكون عظيمة.

- هذا ما نبرر به دائمًا خطايانا.

يتغلب الصمتُ على الموقف، فينتهي نقاشنا.

ننظر دائمًا - نحن بنو البشر - إلى الصورة الكلية، لا ننجذب إلى التفاصيل الصغيرة التي تُبدع حقيقة حيواتنا، نهمل المشاعر والأحاسيس، وننظرُ إلى النتائج والإنجازات، ثم عندما تحين لحظة موتنا، نفجع، ونعرفُ حقًا إلى أيّ مدى أضعناها دون أن ندري.

أسيرُ بعد غلقِ الدكان لأشتري قليلًا من حاجيات المنزل، أدخل شارعًا مظلمًا قصيرًا يختصرُ المسافة، أحس ورائي بحركةٍ فألتفت،

أجدُ كلبًا أسودَ بذيلٍ قصير يمشي ببطءٍ خلفي، عندما أقفُ يكمل هو مسيره بجانبي بمنتهى الثبات، يأتي على ذهني خاطرٌ؛ فأنفذه.

أمسكُ بالكلبِ الذي ينبح برعب من وسطه، ألصق ظهره في الحائط وهو يكمل النباح، أخنق رقبته بيدي حتى يكادُ يغادر الحياة، ثم أطلقها فيسترد أنفاسًا مذعورة، كما توقعت، تلك العينان ليست بعيني كلب.

(**من أنت؟**)، أوجهُ له كلامًا فلا يجيب.

(**ابن عكب أم ابن إلكيچووب؟**)، كنت قد توقعتُ بعث أحدهم ليبحث عني، وفكرتُ في الاحتيال بحيلة التجسد، التجسد يضعف القدرات، تصبحُ قدراتك مساويةً لما تتجسد به أو أكثر بقليل بحيثُ تحتفظ بقليلٍ من قدراتك الأصلية كجنيّ، نعم هذه مخاطرة، ولكن أحيانًا كثيرة تكون ضرورة، الميزة أنك تنسلخُ من قومك فينطبق عليك ما ينطبق على ما تتجسد به.

يهز الكلب رأسه أن لا.

(**أعرف هاتين العينين، أنت ساماسان**)، ابتسامة رضا على وجه الكلب - إن كان يعرف كيف يبتسم -

(**نعم أنا**) يجيب بصوتٍ قريب من نباحٍ خفيض لكلب.

(**هل تبحث عني؟**)، أسألهُ وأنا أفكر؛ لو أن هناك أحدًا من البشر يراقبنا الآن لقال بأني جننت تمامًا.

(**نعم، هم يريدون أن يعرفوا ماذا حدث، وهم مصممون على قتلك**)، ينقبض قلبي بقوة.

(**فلتذهب ولتخبرهم أنك لم تجدني**)، ألاحظ لأول مرة الجفنين المشقوقين بالطول، وحركتهما إلى اليمين واليسار.

(**سمعًا وطاعة سيدي ابن لاقيس**)، يقولها في ضعف.

أنزله ليهز ذيله ويرحل في الاتجاه الذي جاء منه، (**ابن برقيار**)، أناديه، فيلتفت، (**اسمي هوابن الحافظ**)، يهز رأسهُ في تفهم.

كنت أعرفُ أنه سيفعل ما أمرته به، رأيت ذلك في عينيه.

■■■

مر العام تلو العام، حتى قضيتُ مع جدي فترةً تُقارب ما لبثته مع الجن، علمني كثيرًا في الحياة وما بعد الحياة، وكان أكبر أثره في تعليمي السحر؛ نعم السحر، الذي يعتقد أغلب البشر أنه من فعل الجان، علمني جدي أنه علمٌ أوخلقٌ من مخلوقات الله، تجري تعاويذه وتراكيبه على سنن الله، فتغير في الأحداث بمقتضاها، برعتُ فيه، فحذرني، لقد علمني ليكفيني شره، ونبه عليّ بعدم استخدامه إلا في حالات الضرورة القصوى، تحدث عن كياناتٍ وأبعادٍ أخرى قد تُفتح ولا أستطيع مجابهتها، وأخذ على ذلك قسمي.

لم يحدث جديدٌ في حياتي الاعتيادية مع جدي، فقط مناوشاتٌ فكرية بيننا، وخبرة متبادلة، ومعيشة مشتركة.

حدثته كثيرًا عن أبي، وعلمت أشياء لم أكن أعرفها قبلًا، واستفدتُ بخبراتهِ عن الجن الذين اعتبرتُ نفسي يومًا منهم، حتى جاء اليوم!

جلس معي جدي بعد الغداء نتكلم كالعادة في شتى الأحداث، سرح ببصره قليلًا، ثم وجه إليّ الكلام: (**أظن أنهُ قد حان الوقت**).

- أي وقت يا جدي؟.

- الوقت الذي تختار فيه أي الفريقين تريد.

- لو أردتُ الفريق الآخر لرحلتُ منذ زمن!.

- الإنسان اختيار.

- إذن لواخترتُ قومي الجن سأصبح أيضًا إنسانًا.

يضحك مقهقهًا، (**أنت في كل الأحوالِ إنسان، سواء اخترت أي الفريقين، سيبقى جزؤكَ الآخر ولن يختفي أبدًا مثلما حدث قبلًا**).

كنت أعرف ذلك، ولكن قليلًا من التذكير يفي أحيانًا بالغرض.

- ما كنت أريد أن أوضحه أنك حالةٌ فريدة تحوي عالمين متناقضين، وهذه الحالة أدخلتك في صراع ليس لك فيه يد، اختيارك سيحدد مستقبلك، ولهذا أريدك أن تختار.

- لوكنت مكاني ماذا كنت ستفعل؟.

- أنا لستُ مكانك، ولكني دائمًا سأكون في الجانب المضاد لمن يريد تغيير ناموس الكون.

- إبليس يرى أيضًا أن خلق آدم تغيير لناموس الكون ساعتها.

- فليرَ ما يراه، كلُّ مخلوقٍ يُبرر أفعاله لتحلو له، أليس هذا كلامك؟.

أصمتُ مفكرا قليلًا.

- وماذا سيعود عليّ من الانضمام لأي الجهتين ؟.

- لا أفهم.

- ماذا سأكسبه أو سأخسره إذ انضممتُ إليك أو إلى بعلزبول؟.

- أترمي للتحرر من كلينا؟.

ابتسم، لم يفهمني أحدٌ مثلهُ قبلًا قط.

- أنت فعلًا لا تُدرك مدى أهميتك، أنت تحوي في دمك أنقى سلالةٍ في كل عالم، تجمعت فيك قدراتُ إبليس مع سيف مهلاييل، أنت الذي لن يتكرر ثانية.

- لحظة، هل قُلت السيف؟.

- نعم، فهو ملكك باعتبارك آخر نسلنا.

- وأنت يا جدي؟.

- طال الوقت أم قصُر سيحين موعدي.. أنا فعلًا أحس باقترابه.

أسهم حزينًا، (**أليس من هذا فكاك؟**).

- إنه قدرك يا بني.

يخيم حزن قاتم علينا، ينهيه بحديثه: (**تعالَ معي**).

يتقدمني ليدخل الغرفة المغلقة دومًا، أدخل وراءه، يغلق الباب ويوقد شمعتين تنيران جزءًا من الغرفة، يتقدم ليواجه جدارًا عريضًا مغطى نصفه بقماشٍ أسود.

(**هذا هو سرٌّ عائلتنا، عهدنا الذي حفظناه دومًا**).

يكشف الغطاء لأرى السيف مدلى من مقبضه وتتجه ذؤابته لأسفل، بجانبهِ جرابه الجلدي ذو اللون البنيّ.

مهما وصفتُ من محاسنه فلن أوفيه حقه، أجمل سيفٍ وقعت عليه عيناي على الإطلاق.

مقبضٌ عاجيّ مزخرف يتصل بسيف ذي لون رماديّ فاتح مطفئ، ونصلٌ حاد قاطع، يتعرج سطح السيف في تؤدة مبرزًا نصليه، وتأخذك رهبةٌ مفاجئة حين النظر إليه.

يتناولهُ جدي، ثم يمسكه من سطحه ويوجه مقبضه نحوي.

أمد يدي في وجلٍ وأقبض عليه، تسري رعدةٌ حقيقية في جسدي، وأحس بألمٍ رهيب في جانبي الأيسر يكاد يشطره.

(**تماسك يا ولدي أرجوك**).

فأضغطُ على أسناني بقوةٍ حتى لا أفلت صرخة، رويدًا رويدًا يقل الألم، قطرات العرق تغمر جبيني، وصوت تنفس جدي بجانبي، لحظة! ما هذا؟

يبدأ السيف في السطوع بنورٍ أبيض رقراق، يزيد رويدًا حتى يُضيئ الغرفة بأكملها، يخيل لي أن نصله استطال قليلًا.

(**الآن السيف يقبلك**)، ابتسامةُ الرضا تزين مُحيا جدي.

(**الآن أصبحت حافظ عهد مهلاييل الجديد**).

يتراءى إليّ أني أسمعُ صرخة بعلزبول تأتي من بعيد، يهدأ ضوء السيف ليعود إلى طبيعته.

(**الآن أغادر وأنا راضٍ**)، أنظر إليه جزعًا.

(**لا تخف، سأظل دائمًا هُنا**)، ويضع يده على صدري.

عندما خرجنا إلى بهو المنزل، وجدنا رهطي السابق من الجن في انتظارنا!!

(**من أذن لكم بالدخول؟**)، يُكلمهم جدي في صرامة.

(**وهل نأخذ الإذن من مأفونٍ مثلك؟**)، يقولها ابن شمهورش في استهزاء، فيمسكُ يده ابن ساروش ليمنعه من التقدم.

(**نحن نريد ما لدينا عندك**)، يوجهها ابن ساروش لجدي.

(**ليس لكم شيء، هذا حفيدي وأنا أولى به**)، يلتفت إليّ جدي ليلقي نظرةً حانية، ثم يكمل: (**لو أراد الذهاب معكم فلن أمنعه**).

(**لا**)، أصرح بها بدون تفكير.

(**وغدٌ كعادتك**)، كانت هذه من ابن شمهورش. أتبعها ببصقةٍ على الأرض.

(**دعني أقتلهُ مثلما قتلتُ أباه**)، يوجه ابن شمهورش لابن ساروش كلامه.

(**إذن فهو أنت**)، يواجهه جدي في قوة.

(**نعم أنا، هل ستقتلني أيها العجوز الخرف**)، مستهزئًا كعادته يبتسمُ لتبرز أسنانه المصفرة.

يوجه جدي يده بسرعةٍ ناحية ابن شمهورش فيخرج منها ما يشبه البرق ليضربه في جبهته، فيطيرُ ليرتطم بالجدار خلفه.

يلتفتُ الجميع ناحية جدي الواقف في سكون ويده موجهة نحوهم، يُخرجون أسلحتهم.

(**آمركم أن ترحلوا، هو بيتي ولم آذن لكم، ارحلوا بسلامة أوفلتموتوا بلا كرامة**)، يوجهها إليهم جدي في قوة.

(**صراعك أصبح مع عزازيل الآن**)، يهدده ابن ساروش.

(**صراعي دومًا كان معه فلا تشغل بالك، بلغه تحياتي، ذلك إن كنت تستطيع مقابلتهُ أصلًا**)، يقولها جدي وأشعر في لهجته بنبرةِ استهزاء.

ينظرون إليّ في غل، ثم يختفون مثلما أتوا آخذين معهم ابن شمهورش الذي لم أعرف هل مات أم لا.

(**ألم أقل لك قبلًا إنهم لن يقدروا عليّ**)، يقولها وابتسامةٌ حزينة تزين وجهه.

(**هل قابلت بعلزبول قبلًا يا جدي؟**)،. أسألهُ في فضول.

(**نعم قابلتُه، لم تكن من نوعيةِ المقابلات التي يحبها المرء، لم أقاتله ولكنه كان يريد مني أن أحطم السيف، نسل مهلاييل هو الوحيدُ القادر على ذلك، ولهذا أعتقد أنه يريدك بجانبه**)، كانت وجهة نظره منطقية كعادته.

(**كيف دخلوا يا جدي إلى منزلنا؟**)، كنتُ بدأتُ قد انتبه.

(**تحوَّل السيفُ مني إليك، وفترةُ الصراعِ قبل قبوله بك، هي ما أتاح لهم الفرصة**)، يقولها جدي في تفكير.

(**لا تخف، فقد عادت الأشياءُ لسابقِ عهدها مجددًا**)، ينتهي الكلام.

رحل جدي عن الحياةِ بعد هذه الحادثة بستة أشهر، وكانت آخرُ كلماته أن أرحل عن الحي، وألا يكونَ لي مكانٌ ثابت، وأن أحافظ على السيف بحياتي.

رحمك الله يا جدي، رحمك الله يا أحمد، رحمك الله يا والدي.

رحمكم الله جميعًا.

■■■

الجزء السادس

حكاية ابن الحافظ



مرت سنتان منذ وفاةِ جدي، تغيرت فيهما الكثيرُ من الأشياء.

أتذكر الأحداث التي مرت عليّ، وأنا جالسٌ في عربةِ مترو الأنفاق مواجهًا "ليلى" أختي التي لا تعرفني، شديدة الشبه بي، تختلسُ النظرات بين الحين والآخر، وأعرفُ ما تفكر فيه.

وجدتها أخيرًا، أخبرني بمكانها ابن برقيار، أحد جواسيسي في قومِ أمي، كان رهطي يبحثُ مثلي عن أختي، وعرفوا مكانها عن طريق العمّار، ولكنهم لم يأسروها لانشغالهم ببضع عملياتٍ حيوية؛ حيثُ اشتدت وتيرةُ الأحداث في العالمين.

بحثوا عنها كي يستخدموها كورقةِ ضغطٍ لأسلمهم نفسي حسبما أعتقد، وأين يذهب السيف؟ السيفُ الذي لم يغادر حوزتي قط منذ أصبحت حافظ عهده، منظري بالمعطف الجلدي الطويل صيفًا وشتاءً لأخفي السيف، لطالما جذب إليّ الأنظار.

بدأتُ بالمغرَبين، جواسيس الجن بين البشر، كيف يكون هناك جواسيسٌ والجن يرون البشر رؤية العين؟ المغربون إما أن يكونوا

مهجنين عاشوا بين البشر، أوجن متجسدة، ومهمتهم ليست جمع المعلومات، وإنما نشر الشائعات وتجنيد البشر وتثبيط المقاومة.

الغريب أنني وجدت بعضهم في مناصب مهمة في مختلف أنحاء العالم، وكيف أعرفهم؟ هل نسيتم من أنا؟ كنتُ لا أرى قرينهم من الجن لو كانوا مهجنين، وكنتُ أرى صورتهم الجنية الحقيقية لو كانوا متجسدة.

تتبعتهم حول العالم، بالإضافةِ لثروة جدي التي آلت لي، كانت هناك قدراتي بالانتقال الآني، وقراءة الأفكار التي اكتسبتها من السحر، وسرعتي الشديدة، وقوتي كنصف جنيّ التي ألجمت عقول أعدائي فصرعتهم.

لم تكن هناك مناوشاتٌ خطرة معهم، أغلبهم تفاجأ بوجودي، ومن استعد تفاجأ بقدراتي؛ أتذكر أحد المتجسدة ظهرتُ له من العدم وهو يرتاحُ بصورتهِ الحقيقية داخل منزله، ارتعب ولكنه تمالك نفسه وهجم عليّ وكان يبلغ ضعف حجمي، فمارستُ معه لعبة من ألعاب الجن كما يقولون، أخذت أنتقل آنيًا حوله في كل مكان، حتى وقف مذهولًا لا يدري ماذا يفعل، فباغتته بضربةٍ مميتة قضت عليه، كثرة الانتقال الآني في وقتٍ قصير أنهكت قواي، ولكنها كانت الحل الأوحد والأخير.

أرسل بعلزبول ورائي أتباعه، كان يعرفُ جيدًا أنهم غير قادرين على قتلي، كان هو وحده يعرف، ورغم ذلك كان يشاغلني بما يفعل.

بعدها تواصلتُ مع المجنجنة، ابن برقيار كان حلقة وصلي، الخادم الوفي الذي لم يخنّي قط، طلبتُ منهم فقط التمرد، أن يطالبوا بحقوقهم أو السماح لهم بالانتقال لعالم البشر، تلك الفئة التي تُعامل كحيوانات في عالم الجن، قادرةٌ على زعزعة ملك بعلزبول ولو قليلًا، كان كل ما أحتاجه هو الوقت، لأفعل ماذا؟ لا أدري بالضبط، السيفُ بحوزتي، وهذا معناهُ عدم انقطاع النسل، ولكن نصفي الجنيّ لا يزال موجودًا، وإذا كسرتُ السيف، يتسيد بعلزبول، لهذا أرادني منذ البداية، لهذا يبعثُ ورائي بسراياه.

نفذ ابن برقيار ورفاقه ما طُلب منهم تمامًا، انشغل عالمُ الجن بالاضطراباتِ الناشئة في مُلك بعلزبول، قوَّاها حيادُ السعالي والطيارين كعادتهم، وكانت نجاتي من رهطي وعدم تمكن بعلزبول مني، هما الوقودُ الذي يُغذي حركة المجنجنين.

قلتُ لهم أن ما سيفعلونه سيعطي المبرر لقتلهم بلا رحمة، فما استكانوا، أملُ الحرية في صدورهم طغى على أي تفكيرٍ بالرضا بوضعهم المهين مرة أخرى.

تواصلي الدائم مع ابن برقيار كان معين معلوماتي عن رهطي وعن عالم الجن، مهما قلتُ لن أوفيه حقه بالفعل.

الجنَّاس كانوا الأسهل، هم بالفعل يُدركون مدى قوتهم، ويعرفون أهميتهم التي يبخسها بعلزبول وقومه.

لكين وصرفريار ظلا صديقيّ رغم كل شيء، ومن خلالهما التحق بنا كثيرٌ منهم ليصبحوا النواة الجنية لجيشي، جيش الأرض كما أحببتُ تسميته، الجيشُ الذي يجمع بين الإنس والجن لمواجهة أطماع بعلزبول التي لا تنتهي، الجيش الذي سيحافظ على ثبات الأرض ويعيد لها توازن قواها.

ابن عكب وابن إلكيچووب لم يدّخرا جهدًا لتنفيذ المهمة، بدأت الاضطرابات أيضًا في جيش الجحيم، تفككت الأرهاطُ والسرايا، تنقل الأفرادُ فيما بينهم، وجاهر البعض بالعداوة، كان مصيرهم الموت، وكانوا يعرفون.

نصحت لكين وصرفريار بعدم التهور، وجودهم داخل الجيش يُهمني، وحياتهم مهمة كحياتي تمامًا، وقد كان.

السعالي والطيارون ظلوا على حيادهم مع الجميع، دعوتهم المرة تلو الأخرى، كان رأيهم أن الانضمام لي معناه معاداةٌ واضحة

وصريحة لبعلزبول، وهذا سوف يُفضي إلى الحربِ لا محالة، أما الوضع الآن فهو كما هو منذ آلافِ السنين، وكل المطلوب مني، أن أتزوج وأنجب ليستمر النسل.

سمراح قابلته في رَبع جزيرة العرب الخالي.

وقفتُ بعد الفجر في نقطة عالية من أبنية المدينة الغافية، توجهت نحو المشرق؛ حيث من المفترض أن يتواجد سمراح.

أغمضُ عيني، وأركز على اسمه، أحسب عدد حروفه الرقمي بالسحر، وألهج بتعويذة علمها لي جدي للاستدعاء، كنتُ أنتظرُ انتهاء الليل حتى يهدأ جنود بعلزبول، فالليل هومملكتهم.

تتمثل لي صورة سمراح فأستأذنهُ بالمقابلة، وأتلو عليهِ عهد السحرة البابلي، ذلك العهد الذي اتخذه الملاك "ماروت" على كل من علمه آنذاك فأصبح عهد السحرة في كل زمان ومكان.

يُعطي لي السماح بالولوج لمملكتهِ في الربع الخالي، يضربُ لي الموعد بعد عصر اليوم الثالث من الأسبوعِ التالي، فأكون في الموعد.

أنتقلُ آنيًا قاصدًا الربع الخالي، تلك الصحراءُ التي لطالما سمعت عنها الحكايات، أضع في ذهني كلمتي سمراح ومملكة السعالي حتى أصل سالمًا لوجهتي.

عندما أفتح عيني يقابلني هبوب شديد لعواصف رملية، القمر يُضيءُ ما حولي بلونٍ باهتٍ على الرغم من أن الوقت مفترض بأن يكون عصرًا، حيث تتوسط الشمس كبد السماء حين تركتها!

أرفعُ طرف معطفي لأحمي به وجهي، أهمسُ بفحيحٍ يشبهُ صوت الأفاعي: (**ابن لاقيس هو أنا، مملكةُ السعالي ما أقصد**).

تتموجُ كثبان الرمال أمامي بحركاتٍ أفعوانية، تشتدُ العاصفة الترابية، أغمض عيني لأحميها، وحين أفتحها أجد بوابةً حجرية ضخمة نبتت من الفراغ، يسد فتحتها حارسها بجسده الضخم، نصفه السفلي حيوان ذو حافرين وركبة منثنية إلى الخلف وبلون أسود، ونصفه العلوي إنسان ذو جلدٍ أحمر ووجهه مسود ذو شعرٍ كثيف، يبدو كهجينٍ بين مارد وغول، يحمل سيفًا عملاقًا معلقًا على جانبه، وينظرلي بعينه ذات القزحية حمراء اللون نظرةً نارية فعلية.

أترك طرف معطفي بعدما توقفت العواصف ورجع ضوءُ النهار، أتقدمُ حثيثًا نحوه وأطلب منه مقابلة سمراح، يتكلم بلغة غريبة لا أفهم منها شيئًا، ويرد عليه صوتٌ من الفراغ بنفس اللغة، فيتحرك جانبًا، سامحًا لي بولوجِ البوابة الحجرية؛ مدخل مملكة السعالي.

أنظرُ عبر البوابة فلا أرى إلا الصحراء الممتدة، وعندما أخطو ويكأنني انتقلتُ بين عالمين، يبدو أن البوابة تفتح بعدًا آخر غير عالمي الجن والإنس، ولهذا لم أتبين المملكة خلالها، ولهذا يظل سمراح آمنًا من بطش بعلزبول.

مهما وصفتُ فلن أستطيع أن أعبر عن مدى إعجابي بما رأيت، لولا المهمةُ التي أوكلني بها جدي، للبثتُ هنا ليومِ مماتي، عرفت فعلًا لماذا يحيل بنو آدم كل أفعال السحر الخارقة إلى الجن، على الرغم من أن الجن أيضًا يمارسون السحر.

قابلني سمراح في مجلسه، السعالي هم أولاد عمومة للغيلان، بل إن بعضهم يقول أنهم غيلان ولكن أذكياء ذوو علم. يجلسُ على عرش مملكته، كبير السن يبلغ سبعمائةٍ وخمسين عامًا تقريبًا، أقرب في تكوينه إلى البشر ولكن يفوقهم طولًا، ذو جلدٍ رمادي، وجفنا عينيه يتحركان للأجناب فتكون عينه مشقوقة طوليًا.

رحب بي وقدم إليّ واجب ضيافته، وكان رأيه مثلما سمعتُ سابقًا؛ أن أتزوجَ وأنجب فيستمر النسل، وأخبرني ببضعةِ أشياء وضعتها في حُسباني مثل أن الحرب في النهاية ستهزمنا جميعًا حتى المنتصر فيها، وأخذتُ منه السماح باستخدام الحمايات السحرية

في عالم البشر؛ فهذا اختصاصهم ولوتعديتُ عليه لاكتسبت عداوتهم.

ثم اجتمع بي على انفرادٍ وأهداني هدية قيمة، ستستخدمُ في وقتها، وأوصاني ألا أخبر أحدًا بها حتى أقرب حلفائي.

سمراح كان حكيمًا، ليت بعلزبول يستمعُ له.

وأخيرًا كان البشر، تواصلتُ مع المهتمين والمطلعين على الموضوع - كمثل والد أحمد رحمهما الله - في كل أنحاءِ الأرض، ورويدًا رويدًا بدأت تتكون البذرة البشرية لجيش الأرض، أصبحت أنا الرافد الرئيسي الذي تصب فيه مصادر المعلومات من العالمين، وخرجت مني الأوامرُ للاستعداد للمعركة، كنت أنا في مواجهةِ بعلزبول، كان جيشُ الأرض في مواجهة جيش الجحيم.

ظل أكثر شيءٍ يثير إعجابي، هو التأمل في وجوه البشر الغافلة وأنا أركبُ معهم وسائل مواصلاتهم، فهذا يُحب ويثرثر في هاتفه، وهذا يحمل هم الدنيا على عاتقه، وذاك ينام بعد إرهاق يوم عملٍ طويل، وتلك تُمسك بأطفالها لتحميهم في عالمٍ لا يرحم كما تتصور.

كلُّ هؤلاء لو علموا ما يجري في الخفاء، لأصابهم هلعٌ تتساقط منه جلودهم.

خيرٌ لهم ألا يدروا شيئًا.

كل هذا أتذكره وأنا أجلس قبالة أختي في مترو الأنفاق، لأول مرةٍ أراها، تُشبهني إلى حدٍ كبير، بضعة تجاعيد بسيطة حول عينيها تدل على قسوة الزمن عليها، هي كباقي الغافلين، لا تدري أنها نسل ملوكٍ يحافظون على توازن الحياة، أحيانًا أعتقدُ بأنني مجنون إذ أفكر بمثل تلك الأشياء.

تتبعتها أسبوعًا كاملًا لحمايتها، الفرصةُ الوحيدة لخطفها كانت هي الشارع المظلم المختصر، كعادةِ قصصنا الدائمة، ولذلك أوصيتُ ابن عكب وابن إلكيچووب بحمايتها، كلبان أسودان لن يقدر الجن عليهما، ابن شمهورش لو عرف بما يفعلانهِ لقتلهما شر قتلة.

تعمل بوظيفةٍ جيدة بشركة كبرى، وتسكن مع صديقتها في شقةٍ بمفردهما بعد وفاة أمها منذ ثلاثة أعوام.

قاست كثيرًا تلك الأخية.

بعدها بعدة أشهر ذهبتُ إليها في منزلها، فتحت لي الباب صديقتها، هذا الشكل ليس بغريبٍ عليّ، أسفاري وانتقالاتي في شتى أنحاءِ الأرض، جعلتني أظن بكل شخصٍ أقابله أني رأيته قبلًا.

أطلبُ منها مقابلة ليلى، تسمح لي، فأدخل وأنتظرها.

أنظرُ حولي في غرفة الاستضافة لأرى العمّار خائفين ويتراجعون، سيصلُ الخبر الآن إلى جنودِ بعلزبول بأني هُنا، أفردُ يدي وأجمد حركتهم، سأعتبر أن هذه ضرورة قصوى لاستخدامِ السحر يا جدي.

أنظرُ إلى أعينهم لأمحو ذاكرتهم، لوفُتحت للبشر عين الغيب ليروا ما خفي عنهم وما يعيشُ حولهم، لما انتظمت دنياهم هكذا.

غفلة البشر هي المعين الأصلي لاستمرار حياتهم.

(**سمعتُ أنك تريد مقابلتي**)، تدخل وهي تقول هذه العبارة.

معصودة الجبين ويظهرُ عليها إرهاقٌ غير طبيعي، تجلس على أقرب مقعد يقابلها.

(**مرحبًا يا ليلى**).

(**مرحبًا بك أنت، فأنت في بيتي، هل من الممكن أن أعرف ما الشيء المهم الذي جاء بك إلى هنا؟**)، قوية كأخيها هذه الفتاة، تظهرُ ابتسامةٌ على وجهي لا أستطيعُ مداراتها.

(**لا شيء، رأيتكِ في مترو الأنفاق، وأعجبت بك، فأتيتُ لنتقابل**).

ترفع حاجبها الأيمن إلى أقصى ارتفاعه، تضغط بأسنانها الأمامية على شفتها السفلى في غيظ، (**ما هذا الجمال؟ ما هذه الروعة؟**)، تقولها والحنق يتصاعدُ ليملأ الغرفة.

لا أتمالك نفسي من الضحك، (**ماذا بكِ؟، لا تبدين على ما يرام**).

- **هذا ليس بشأن لك!.**

- **إني أتكلم بجدية، يظهرُ على وجهكِ إرهاقٌ وتعب غير عادي.**

تدخل صديقتها التي استقبلتني لتقف على باب الغرفة وتقول: (**هاجمها أحدهم مساء أمس وهي عائدة من عملها، وكاد ينالُ منها لولا أن هاجمه كلبٌ، فاستطاعت أن تفر**).

(**وماذا حدث للكلب؟**).

تنظر كلتاهما لبعضهما البعض في دهشةٍ من هذا الغريب الذي يهمه أمر كلب.

ترد صديقتها: (**لا نعرف، لم تقل لنا من أنت؟**).

يبدو أنني لم أعد في مزاجٍ رائق لأتلاعب بهما، (**أنا حافظ محمد مصطفى، أخوكِ يا ليلى**).

تتسع أعينهما عن آخرها، تقفُ ليلى من جلستها مفزوعة، ثم تقع فاقدة للوعي، يبدو أن بيننا أشياء كثيرة مشتركة.

بالرغم من كل قدراتي السحرية، أصابني خوفٌ من فقدها، فأخذتها وذهبنا للمشفى كي تتعالج، وكان رأي الأطباء حجزها يومين لضبط حالتها الصحية.

تركناها أنا وصديقتها، ورحلنا، عند اقترابنا لمنزلهما وأنا أوصلها، اقترحت عليّ أخذ الطريق المختصر، ذاك الطريق الذي وصيتُ صديقي بحماية أختي فيه.

(ليلى تقول دائمًا بأن هناك كلبين يحميانِها في هذا الشارع)، تمشي على يساري بيننا مسافةٌ تتعدى النصف متر.

(وهل تصدقينها؟؟).

(هناك أشياء عدة في الحياة أصدقها، وهي أغرب بكثيرٍ مما تقوله ليلى).

يعجبني منطقها، **(مثل ماذا؟)**.

تصمت للحظات، **(مثل أن يأتي أخٌ لأختهِ بعد مرور كل هذه السنوات)**.

أضحكُ ضحكة قصيرة بصوتٍ مرتفع.

(فعلًا هذه أكثر غرابة).

تشرق ابتسامتها لتُضيء الشارع بأكمله، أنا أعرف هذه الابتسامة أيضًا، أنا واثق!.

يظهر كلبٌ أسود بجانبي، تتفاجأ صديقة أختي، تتوقفُ للحظة ثم تكمل مسيرتها.

يصدر صوته بنباحٍ خفيض:

- مات ساماسان، هو من هجم على ابن شمهورش لكي يمنعهُ من خطفِ أختك، هي مُعرضة للخطرِ الآن.

شهقة مكتومة تخرج منها عندما تسمعُ الكلب يتكلم، تستمر في خطاها، خوفها يدفعها للالتصاق بجانبي، أمسكُ يدها اليمنى بيُسراي لأطمئنها.

-لا تخف، سمراح أعطاني الإذن باستخدام الحماياتِ للبشر، هي الآن محمية. آسفٌ لسماع موت ابن برقيار، كان نعم الصديق.

يكملُ لكين بصوته الكلبي: (**ابن إلكيچووب بقيَ في رهطنا وانفصلتُ أنا عنه، وابن شمهورش يُراقبنا الآن ويقتل من يشك فيه، جُنَّ جنون عزازيل بعد الانفصالات الأخيرة واكتشاف خيانةِ الجنّاس**).

(**بعلزبول لن يهدأ إلا لو انتهى حلمهُ مؤقتًا بانقطاع النسل**)، ما هذا الذي أحسهُ في راحة يدها.

(**فليرحمنا الله جميعًا، المُهم أن تحفظ نفسك، الراياتُ السوداء ترتفع، ويبدو أن وقت الحربِ قد حان**).

(**فلتحافظا على نفسيكُما يا لكين أنت وصرفريار، أنتما تعرفان حاجتي إليكما جيدًا**)، يبدو وكأنه جرحٌ قديم مُندمل.

(**وداعًا يا ابن الحافظ**)، يعرجُ لكين جانبًا ويختفي، نصلُ إلى نهاية الشارع ونقصد البيت، ممسكًا بيدها في مشهدٍ يجذبُ الأنظار، أقفُ على باب البيت مترددًا، أفتحُ يدها لأرى علامة حرقٍ قديمة، علامة حرق قديمة على شكل حرف "S" أنظرُ لها بكل لهفةِ الدنيا:

(**أنتِ سارة**).

(**أنت حافظ**).

لتتلاقى عيوننا في عناقٍ يمحو كل ما فعلتهُ السنون بروحينا.

خرجت ليلى بعدها بعدة أيام، ونقلتها هي وسارة لمنزل أحد أصدقائي من البشر في ضيعةٍ زراعية معزولة، أخبرتُ ليلى بأن حياتها معرضةٌ للخطر فعرفت أن أمها -رحمها الله- ذكرت لها ذلك كثيرًا، طردت العمّار وأضفتُ الحماية اللازمة حولهما، بل وطلبتُ من ميمون السحابي رئيس الجن الطيارين أن يحميهما بطلبٍ شخصي فوافق.

أرتقي سطح أعلى بنايةٍ في المدينة، أواجهُ الجمع الذي أراهُ من جن وبشر.

أهمسُ بفحيح يشبه صوت الأفاعي: (**ابن الحافظ هو أنا، ابن لاقيس هو أنا، معركتك معي أنا يا بعلزبول، فلتبعثهم إليّ لا لأحد غيري، وإلا فأنت تعرف ما ينتظرك وينتظرهم**)، يتموج الهواء أمام كلماتي هذه وينتقل كسحابةٍ صفراء باهتة لينتشر في ربوع الأرض، كان تهديدي بالحربِ ضروريًا، لأحمي من يتوجب عليّ حمايتهم.

مرت الأيامُ بسرعة بنفس وتيرتها المملة، أزور ليلى وسارة لأطمئن عليهما، أقابلُ لكين وصرفريار لنتناقش فيما نفعله، أزورُ حلفائي من الإنس والجن لنتبادل المعلومات والمهمات.

بدا أن بعلزبول نسيني.

أقفُ في أعلى بيت صديقي الذي أحتفظُ عندهُ بليلى وسارة آمنتين، يتطايرُ المعطف الجلدي الطويل على جانبي بفعلِ الهواء، أستندُ على جذع شجرة عتيقةٍ يصلُ إلى سطح المنزل، ساهمًا فيما سأفعله، كانت كل النوايا مبيتة على تأجيل الصراع، لا داعي للحرب، وسمعتُ أن سمراح بعث مرةً أخرى لبعلزبول لنُنهي الصراع، دون جدوى، أسمع خطواتٍ وجلة ورائي.

(**لقد افتقدناك يا حافظ**)، صوتُ سارة المليءُ بالشجن.

(**وأنا أيضًا يا سارة، كنت أعرفُ أخباركما فلا تقلقي**)، أتكلمُ بدون أن ألتفت.

تتقدمُ لتقف بجانبي، (**لماذا تتأخر كثيرًا الآن في قدومك؟**).

- الوضعُ يتطور يومًا بعد يوم، ويجب أن أكون مطلعًا على الأحداث.

- وفقك الله فيما فيه خيرنا.

- شكرًا لكِ.

- هل سنظلُّ مختبئين عن الناس هكذا دومًا ؟.

- حتى ينتهي الصراع، لا أريدُ الأذى لكِ أو لليلى.

- أنا أتكلمُ عنا نحن الاثنين يا حافظ.

أسكتُ لبضعِ دقائق لا أسمعُ فيها إلا صوت حشراتِ الليل.

- تدرين جيدًا ما أفعلهُ يا سارة.

- لكن يا حافظ....

- ليس هناك لكن، هذا ما اتفقنا عليهِ منذ البداية.

- أنا أريدُ أن تعرف الدنيا بأكملها أنك زوجي.

(**صِه، قلتُ لكِ ألا تتكلمي نهائيًا بمثلِ هذا الكلام**)، أقولها في قسوة، (**في اللحظةِ التي سيعرف الجميع فيها أني تزوجتكِ ستنفتح أبوابُ الجحيم، ولن يستطيع أحد أن يقفلها، حتى سيفُ مهلاييل ذاته**).

(**سيفُ ماذا؟**)، كانت هذه من ليلى التي وصلت للتو لتسمع آخر كلماتي.

أنظرُ بصرامةٍ مرة أخرى لسارة، ثم أرجع نظري للأمام.

(**لماذا لا يرد عليّ أحدكم، أنا لا أفهم شيئًا البتة، ولا أحد يجيبني على أي سؤال**)، تُكمل ليلى كلامها بسرعةٍ غاضبة.

(الوضعُ باختصارٍ أنها حربٌ قديمة بين الإنس والجن، أنتِ من نسل الملك مهلاييل قاهر الجن، وأخوكِ والدتهُ جنية، وأبوكِ وجدكِ كانوا حافظين للعهد، وأنا نسلُ زوجاتهم، والكلابُ التي كانت تحميكِ من الجن، والذي هاجمكِ جنيّ، هي حربٌ ونحن دخلناها مرغمين وأرجو أن نخرج منها سالمين)، كانت هذه من سارة.

تفغر ليلى فاهها في دهشةٍ مما تسمعه: **(ما هذا الخرف؟؟)**.

أنظرُ إليها، ثم أنظرُ إلى الشجرةِ العتيقة التي كنتُ أستند عليها منذ قليل، أوجه كلامي للشجرة: **(هل ستخرجُ طواعيةً، أم أخرجك رغمًا عنك؟)**.

تنظر الفتاتان لبعضهما البعض في دهشة.

أنتظرُ دقيقةً فلا يرد أحد.

أدخل يدي من خلال جذع الشجرة الخشبي مخترقًا إياه دون أن أحطمه وكأنه هواء، ينطلقُ صوت صرخاتٍ قصيرة، ثم أخرج يدي قابضًا على شيء لا يظهر لعيونهما.

(فلتُظهر نفسك أيها القزم)، أكلم الفراغ الذي أمسكهُ بيدي.

يتجسد جسمٌ صغير، بشع الخلقة، ذو أذنين طويلتين أمسكهُ منهما، لونه رمادي مائلٌ للخضرة.

تشهقُ الفتاتان، (**هذا هو غولُ الشجرة، من عمرها ويسكنها، ويحفظ كل ما يدور حولها من أحداث وأحاديث**)، أفسر ما جرى.

ينظر إليّ في جزع، هو يعرف ما قد أفعله، (**لن أقتلك**)، أطمئنه، (**ولكن يجب أن تأتي بالميثاق أن ما سمعته اليوم لن يسمع به أي أحد آخر سواء من الإنس أوالجن**).

(**لك هذا يا سيدي**)، يقولها في استكانة، ليس أمامه غيرها، (**لك ميثاقي يا سيدي**)، يقولها ويخفض رأسهُ فيرتفعُ باقي جسمه المعلق في الهواء، ويمدُ يديه للأمام دلالة على صدقه.

أقذفُ به على الشجرة، فيتعلق بجذعها، ينظر لنا جميعًا مرة أخرى، يحييني برأسهِ الطليقة هذه المرة، ثم ينسل داخل الجذع المُصمت في هدوء.

(**صدقتكما**)، تقولها ليلى في خفوتٍ بعد مرور عدة دقائق من الصمت.

(أعرف أن لدي الكثير من الأسئلة، الفضولُ يقتلني وسأفهم من سارة كل شيء على راحتنا، ولكن سؤالي الأول، ما أهميةُ سيف مهاليل هذا الذي سمعته؟)، تضيفُ في سرعة.

(اسمه مهلاييل أومهلائيل، نسل النبي شيث بن آدم عليهما السلام، أولُ ملوك الأرض، وقاهرُ جيش الظلام)، أرد عليها في سرعة.

(أما أهميةُ السيف، أن الشيطان لا يستطيع الظهور علانيةً للبشر ولا أن يتسيد الأرض طالما ظل السيف موجودًا، لأنهُ السلاحُ البشري الوحيد القادر على قتل الجن، القادرُ على قتل بعلزبول)، أضيفُ في هدوء.

يظلل الصمتُ علينا بأجنحته، فتنتهي الليلة.

لا يتغيرُ شيءٌ في الشهورِ التالية، نفسُ مهماتي المكوكية في شتى بقاعِ الأرض.

كنتُ قافلًا مرة من إحدى المدن الساحلية، بعد مطاردةِ أحد المغربين، لم أستخدم الانتقال الآني لتطلبه طاقةً كبيرة أفنيتُها في قتالي معه، جسدي البشري محدودٌ مهما امتلكتُ من قدرات، فركبتُ إحدى الحافلات وغفوت، غفوتُ فعليًا، لأفيق على فوهةِ

مسدسٍ يلتصقُ بصدغي، وابن شمهورش من ورائهِ يأمرني بالنزول وإلا قتل جميع رُكاب الحافلة، أطاوعهُ وأنزلُ لأجد ابن ساروش وابن عكب وابن إلكيچووب واثنين آخرين لا أعرفهما في انتظاري، ليتم القبضُ عليّ..

■■■

الجزء السابع

حكاية أخيرة

ننتقلُ جميعًا آنيًا لمقر الرهط، يُجلسونني مقيدًا، ويتحلقون حولي في نصفِ دائرة، أنظرُ إليهم بدون اكتراث، بسمةٌ تزين وجهي لا تعكس أبدًا ما يدورُ بخُلدي من أفكار، بقيَ القليل جدًا، وسيكون الجميعُ على ما يرام، فلتجعله يمُر يا الله، فلتجعلهُ يمر.

لم يتكلم أحدٌ طوال بضع دقائق، أفتتحُ القول مستهزئًا: (**أهي حفلة صامتة؟**)

(**اصمت**)، كانت هذه من ابن شمهورش المُندفع دومًا.

(**ملكنا عزازيل يريدك يا ابن لاقيس، يريدك طواعيةً وبكامل إرادتك**)، يضيفُ ابن ساروش.

يزمجر ابن شمهورش: (**لوكان الأمرُ لي لقتلتك، خائن من نسل خائنة، وجب عليّ أن أعرف ذلك منذ البداية**).

يشير إليه ابن ساروش بالصمت، ثم يوجه إليَّ الكلام: (**ما قولك؟**).

(**أوافق طبعًا**)، يتبادلُ الجميع النظرات في توجس، (**ولكن..**).

(**ولكن ماذا؟**)، يصرخ ابن شمهورش في غضب.

(**هناك طلبٌ أرجوه قبل أن أنفذ ما يريده جدي**).

يسألني ابن ساروش في هدوء: (**وما هو؟**).

(**أريد مبارزة نومومن نسل شمهورش**)، أضيفُ بمنتهى الهدوء، (**مبارزة حتى الموت**)، أقولها في ثقة.

تتسعُ أعين ابن عكب وابن إلكيچووب، يتبادلُ الاثنان المجهولان بالنسبة لي النظرات، ترتسم ابتسامةٌ على وجه ابن شمهورش تنقلبُ إلى ضحكةٍ بصوتٍ عالٍ، ولا يظهر أي تأثر على وجه ابن ساروش.

(**أنا أرفض**)، يلقيها ابن ساروش، (**ولو رفضت الذهاب بإرادتك، ستذهب رغمًا عنك**)، يُضيفها في حسم.

أتسلى برؤيةِ الغضب على وجه ابن شمهورش وهو يلتفت باتجاه ابن ساروش بسرعة وحنق.

(**أنا ابن لاقيس، أدعوك يا ابن شمهورش، لمبارزةٍ حتى الموت، وأنت تعرفُ قوانين القتال، فلترفض ليقترن اسمك دائمًا بالجبن والهرب**)، أوجهها بمنتهى الهدوء.

(**دعني أقاتله**)، يقولها لابن ساروش.

(**لا**)، ينطقها في حسم.

(**أقول لك دعني أقاتله**).

(**وأنا أقول لك لا**).

ليُخرجِ ابن شمهورش سيفه ويضعه على عنقِ ابن ساروش، (**سأقتلك وسأقاتله**).

(**أنت ميتٌ لا محالة يا ابن شمهورش، ملكنا المعظّم عزازيل سمح لك بقتاله، وصلني هاتفهُ الآن، فلتقاتله، ولو لم يقتلك، سأقتلك أنا، ولتتذكر هذا جيدًا**)، يقولها ابن ساروش بأكبر قدرٍ من الثبات.

يبتسمُ ابن شمهورش ويُنزل سيفه، ثم ينظر ناحية أحد الجنديين، فيتجه ويفكُ أغلال رسغيّ، تتحرر يداي أخيرًا.

يقفُ كلٌّ منهم في زاويةٍ من زوايا القاعة، ويقفُ ابن ساروش على الباب ليمنع الهروب، لو أراد أحدٌ الهروب من مبارزة حتى الموت، يشترك في قتلهِ كلٌّ من شهد دعوة المبارزة.

نقفُ كلانا متواجهين، يفتحُ ابن شمهورش فاهُ على أقصى اتساعه مبرزًا ابتسامة لا أعرف كيف أفسرها.

يشيرُ إلى ابن عكب وابن إلكيچووب: (**فليعطِ أحدكما سيفه لصديقكما الوفيّ**).

قبل أن يُخرجا سيفهما، أشير إليهما، ثم أخلعُ معطفي الطويل ليظهر السيفُ المُعلق أسفله على ظهري.

(**أعتقد أنّي أملكُ أحدها**)، أقولها وأستلهُ في سرعة.

يشهقُ ابن ساروش ويقولها وعيناهُ على أقصى اتساعٍ لهما: (**هل هذا هو سيفُ مهلاييل ؟**).

(**يُخيَّل إليّ أنهُ كذلك**)، أجيبه وأنا ابتسم.

يبدو أنهُ الوحيد بينهم الذي يعرف كنه هذا السيف، حيث لم يتأثر أحدهم مما سمعه حتى ابن شمهورش.

نشيرُ إلى بعضنا بالسيف، ثم نجعلهُ جانبًا إيذانًا ببدءِ القتال.

يهجمُ عليّ، فأتحاشى ضربته، يتلاعبُ بالسيفِ بمهارةٍ كديدنه ثم يُوجه ضربةً قاتلة باتجاهِ صدري، أنتقلُ آنيًا للطرف الآخر من القاعة، (**لقد تطورتُ كثيرًا عمّا تعرفهُ عني يا معلمي، فلتُخرج**

أكثر مهاراتك حتى تتغلب عليّ)، أقولها لأثير غضبه أكثر مما هو غاضب، الغضب يُعمي الصدر، يُعطل الغرائز، ويُشتت التركيز؛ وهذا ما أحتاجهُ مع ابن شمهورش.

(**لقد أصبحت أكثر وسامةٍ بالنُدبة التي تركها جدي على جبينك يا ابن شمهورش)**، أضحكُ ساخرًا منه، فيزدادُ غضبًا على غضب.

لن أطيل عليكم، فمعنى أنني لا زلتُ أحكي أني قتلته، هذا ثأرُ أبي.

(**عليكُما بهذين الأحمقين، ابن ساروش لي)**، أوجهها للكين وصرفريار، أما ابنُ ساروش فمعرفتهُ بالسيفِ قتلتهُ قبل أن أجهز عليه أنا.

نقفُ ثلاثتنا أمام مدخل المقر، أوجهُ إليهم أوامري بشأنِ المُتحالفين معنا.

(**هل ستذهب حقًا إلى عزازيل؟)**، سؤالٌ من ابن عكب.

(**بالطبعِ يجبُ أن أذهب، هناك أمرٌ أولًا يتوجبُ عليَّ فعله، ولكني سأذهب في النهاية)**، أجيبهُ في حسم.

أتقدمُ خطوةً للأمام: (**ابن لاقيس هو أنا، آتٍ إليكَ يا جدي، ولكنّي سأتأخر قليلًا**)، تنتشرُ السحابةُ الصفراء في كافة الاتجاهات، يعلمُ الجن جميعهم الآن أنّي ذاهب، أتبعُها بابتسامةٍ واثقة، طالما أن الأمر يتوجب علينا فعله، فلنفعله.

(**وداعًا يا أصدقائي**)، ثم أنتقلُ آنيًا حيثُ لا يعرف مكاني أحد.

▪▪▪

أفتحُ نور الغرفة فتنتبهُ سارة من نومها، تنظرُلي في وهن، أبتسمُ فتبتسم، كم أحب هذهِ الجميلة.

(**هل أقلقتكِ؟**)، أسألها في ودٍ بالغ.

(**نومي قَلِقٌ الفترة الأخيرة**).

(**أعرف ذلك**)، أرد عليها بكل ما أوتيتُ من حنان.

تنظرلي في ريبة: (**غبت كثيرًا هذه المرة فلماذا أتيت؟**).

أبتسم: (**بحساباتي فمن المفترض أن يُولد طفلنا الليلة؟**).

تشهقُ في عنف وهي تعتدلُ لتُسند ظهرها على قائمةِ الفراش الخشبية، تضعُ يدها على بطنها المُنتفخ، وتمسحُ قطراتٍ من العرق نبتت على جبهتها.

(**أنت لا تعرفُ كم قاسيتُ من نظراتِ أختك العاتبة إليّ**)، تدمعُ وهي تصرح بذلك.

(**أعرف، وأعرف أنك تحملتِ كثيرًا، هو قدرنا كما صرحتِ**

سابقًا، وعلينا أن نتحمله)، أحاول أن أخفف عنها الوضع ولو قليلًا، أو أخففه على نفسي إن استطعت.

أنظرُ بجانبها لأرى قرينتها تنجبُ القرين المُنتظر لابني.

(ستُصيبكِ آلام الولادةِ بعد قليل)، أضمر أن أخفف آلامها مهما تكلف الأمر.

تنظر لي بدهشة، **(كيف عرفت؟)**، تقولها وتمسك بطنها المنتفخة في ألم.

(أنا أعرفُ الكثير صدقيني)، أبتسمُ محاولًا طمأنتها.

تبدأ آلامُ الوضع، تصرخ، أغلقُ الباب جيدًا، أشمر عن ملابسها، وأجد رأس ابني يخرج منها.

أوجهُ يدي إلى رأسها لأخفف آلامها، آخر مرة فلتسامحني يا جدي.

يخرجُ أحمد ابني إلى الحياة، أبتسم، أقصُّ حبلهُ السُري، وأضعهُ في حضن أمه.

أخرجُ السيف من معطفي، أضعهُ بجانبهما.

(هذه هي هديتي لابني)، تنظرُ إليَّ في عدمِ فهم.

(**سيفُ مهلاييل، حافظ العهد الجديد وصل بسلامة الله، أنتِ تعرفين ما عليكِ فعله في تربيته**).

تفتحُ عينيها إلى آخرهما، (**ماذا ستفعل يا حافظ؟**)، وكأنها توقعت.

الطرقات على باب الغرفة تتعالى، صوتُ ليلى أختي وأهل المنزل من ورائه.

(**هو قدرُنا، أنتِ تعرفين**)، أبتسمُ وأنا لأولِ مرةٍ أدرك مدى ما سأفعله.

(**الجميعُ لا يريدون الحرب، الجميع أدركوا أخيرًا مغبتها، إلا بعلزبول**)، أضيفُ بمرارة، (**وعليّ أن أحافظ على دماءِ جيشي قدر المستطاع**)، أختمها في خفوت

أفتحُ باب الغرفة فتقابلني نظراتُ الدهشةِ من الجميع.

(**سارة زوجتي أنجبت أحمد، حافظ العهد الجديد**)، تشهقُ ليلى واضعةً يدها على فمها، وينظرُ الباقي غير مدركين ما أقوله.

■■■

مهمة أخيرة قبل لقاء جدي.

الربع الخالي، الطلب، البوابة، الحارس، وسمراح.

أقول لهُ ما أريده في عجالة، أطلبُ منه حماية أحمد الحافظ حتى يشب، وأشكره بشدة على جميع ما فعل.

ينظر لي في تأثر ويودعني: (**أنت شجاعٌ يا ابن لاقيس، شجاع فعلًا، فلا تخف من مواجهةِ جدك، سترى أبشع كوابيسك تتحقق. ولا تخف من أحجامهم، ليسوا مثلنا، بل هُم أقربُ للخلقِ الأول في أحجامهم وأطوالهم، يبدو أن جميعنا جنًا وإنسًا صغرنا مع تتالي السنين، ولتُدرك جيدًا أنك فعلت الصواب، وأن هذا ما سوف أقولهُ دومًا، فليوفقك الإله العليم**)

أكررُ شكري له، أخرجُ من مملكةِ السعالي، الربع الخالي في ضوءِ القمر غريب، غريبٌ ككل أحداث حياتي.

أقفُ شامخًا، مُرتديًا معطفي كالمعتاد، وأقولها بملءِ فمي: (**جدي عزازيل، ائذن لي بمُقابلتك**)، يتموجُ الهواء أمامي ويتحرك بحركةٍ دائرية كإعصار فوهته تواجهني، ثم يسحبني لداخلها لأواجه قدري المحتوم.

■■■

خاتمة

يقالُ أن حافظ وقف أمام عرش إبليس والأفاعي الضخمة، أبناؤه، تتلوى حولهُ في غضب.

يقالُ أن لاقيس تحوَّلت من شكلِ الأفعى إلى شكلها الحقيقي لتُرحب بحفيدها.

يقالُ أن حافظ طار فوق الماءِ بسحر عظيم.

يقالُ أن السيف الذي أخرجهُ ليكسره أمام إبليس كان مزيفًا وهو سببُ موته.

يقالُ أنه من صُنع سمراح، حيث لا يستطيعُ أحد أن يصنع سيفًا كهذا مثل السعالي.

يقالُ أن صرخة إبليس الغاضبة سمعتها كل مخلوقاتِ الأرض ما عدا بني آدم كعهدهم.

ويقالُ أن سارة جعلت وليدها يضمُّ يديهِ على السيفِ الحقيقي فأضاء ثم انطفأ ضوءهُ دلالةً على تقبلهِ لحافظِ العهد الجديد، ثم صغر ليتناسب طولهُ مع طول الرضيع.

تقالُ أشياءٌ كثيرة ولا أحد يدري مدى صحتها فعلًا.

كديدن بني آدم، يحبون الشائعات.

تمت

القاهرة

20/5/2016

تعقيب

مصادر كتابة الرواية متنوعة ما بين الكتب السماوية وكتب التراث وبعض الروايات.

اتخاذ رواية أو فيلم كمرجع لمعلوماتك هو آفة جيلنا التي ليس منها فكاك.

بعضُ الأسماءِ صحيحة بل لرواةِ حديثٍ من الجن!

نعم مثلما قرأت تمامًا

هناك أحاديث نبوية مروية عن طريق الجن!

وبعضها من محضِ خيالي.

ومن يريد الاستزادة فليبحث

لهذا خُلقنا من الأساس..

كلمة أخيرة

بالطبعِ لا يوجد أي ناقد أدبي صيني بهذا الاسم.